



طائر غريب

د. نبيل فاروق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

طائر غريب ..

برغم جميع من حولى — برغم الصخب والصيحات

برغم حرية قولى — برغم الثروة والسطوات

أحس بأننى قلب — يفتقد الحب والبسمات

أحس بأننى وحدى — وبصدرى كل الآهات

أعيش من دونك حبى — فيهون فى نفسى الممات

أعيش بعيدًا عن عقلى — فتصدأ فى حلقى الكلمات

أعيش وحيدًا منطويًا — مرتجفًا مما هو آت

أتوق لنهر يُغرقنى — فى بئر تروى عبرات

أتوق لقلب يسرقنى — من عمر يبكى النبضات

(نبيل)

١ — بعيدًا ..

« هيًا يا (حسن) .. أسرع ، وإلّا فستمضى الطائرة بدونك .. » ..

همست الأم الحنون بتلك العبارة فى حنان غامر ، ولهفة حزينة ، وهى تتطلّع إلى ابنها النحيل ، الذى انهمك فى ترتيب حقيبته الوحيدة اليتيمة ، وهو شارد قلق ، تضيع نظراته عَبْر النافذة ، فى سماء ممتدَّة إلى ما لانهاية ، وعدد لا حصر له من النجوم المتلألئة كحبات من الماس ، فوق رداء مخمليّ أسْوَد ، وقمر لم تكتمل استدارته بعد ، فبدا كقرص من الفضة ، التهم منه الظلام قضمة نَهِمَة شرِهة ..

ولم يسمعها (حسن) ..

كان عقله يسبح بعيدًا ..

يسبح فى نهر من ذكريات شتّى ، أصرَّت على أن تحوم حول رأسه ، منذ مغيب شمس اليوم السابق ..

كان يسترجع حياته كلها .. تقريبًا ..

لقد نشأ فى بيئة متوسطة ، وجاء ترتيبه الثالث . بين أشقائه ، فيكبره (أحمد) و (وهبى) ، ويأتى هو ، ثم تصغره (حنان) .. شقيقتهم الوحيدة ..

والده موظف مرموق ، فى إحدى الوزارات الحكومية ، يثير ذكر منصبه الرَّهبة فى نفوس موظفى الوزارة ، ولكن هذا لم يمنع كَوْنه أحد محدودى الدخل ، الذين تقتصر مرتباتهم على نفقاتهم الضروريّة ، مع لمسة من الأناقة ، تكون دوْمًا ضروريّة لمواكبة هيبة المَنصِب ، ولكنها لا تكفى لإشباع الأُسرة ماديًّا أو معنويًا ..

ولقد كان الأب يدرك هذه الحقيقة ، ويتعامل معها بواقعيّة كاملة . هو وزوجته الحنون ، التى يعود إلى حِرْصها وحسن إدراكها . فضل نجاح الأسرة فى الظهور بمظهر جيِّد ، طيلة تلك السنوات ..

وكان من الطبيعىّ أن ينشأ الابن الأوَّل (أحمد) مشابهًا لوالديه ، مستسلمًا لوضعه الاجتماعىّ ، مستكينًا له ، يمضى فى حياته فى آليَّة ، فيحصل على شهادته الثانويّة بمجموع عادىّ ، أهّله للالتحاق بكلية بسيطة ، تخرّج فيها أيضًا بتقدير جيِّد ، وجلس فى المنزل مستسلمًا ، ينتظر خطاب القوى العاملة ، الذى سيحدِّد له مسار حياته للسنوات المقبلة ..

ولم يختلف (وهبى) كثيرًا عن والديه وشقيقه الأكبر .. مضى فى حياته مستسلمًا ، ينتقل من خطوة إلى أخرى فى هدوء ، ودون أن يثير حوله أدنى اهتمام أو قلَق ، حتى أنه لمن الممكن أن نقول إن أحدًا من أسرته لم ينتبه إلى حصوله على درجة الليسانس ، إلَّا بعد أن أخبرهم هو نفسه بذلك ، فى أثناء تناولهم طعام العشاء ، فى لهجة بسيطة ، كما لو أنه يلقى إليهم خبرًا بسيطًا ، يخُصُّ شخصًا يمتُّ إليهم بصلة قُربى بعيدة ، ويقيم فى قارَّة أخرى ..

وهو أيضًا جلس ينتظر خطاب التعيين ، حتى أن شيئًا لم يتغيَّر فى المنزل ، سوى أن (أحمد) و (وهبى) صارا يقضيان نهارهما كله فيه ، ويشاركان (حنان) فى معاونة والدتهم ..

(حنان) أيضًا لم تكن تختلف عن الجميع ، إلَّا فى اهتمامها الزائد بأنوثتها ، التى نضجت مبكرًا ، فركَّزت كل اهتماماتها فى تصفيف شعرها ، أو الاهتمام بثيابها وزينتها ..

وهى أيضًا سارت على نفس النهج المستسلم المستكين ..

(حسن) وحده تجاوز ذلك المنهج ..

منذ طفولته وهو يبدو وسطهم كطائر غريب ..

لم يكن أبدًا مستسلمًا ، أو مستكينًا .

كان دوْمًا عنيدًا مكابرًا ..

وكان من المستحيل دائمًا توقُّع خطوته التالية . أو نتائج عمله ..

وعلى عكس أشقَّائه ، لم يكن يمضى جُلّ وقته فى استذكار دروسه فحسب ، وإنما كان جم النشاط ، يتنقَّل من نادٍ إلى نادٍ ، ومن موهبة إلى أخرى ، فتارة يلتحق بفريق الموسيقى فى المدرسة ، وتارة أخرى بفريق التمثيل ، أو التصوير ، أو يقضى أيامه فى رسم لوحات بسيطة ، أو صنع تماثيل بدائية من الصلصال ، أو ينهمك شهورًا فى جمع الصور والطوابع ، وقراءة القصص البوليسيَّة ..

كانوا يقولون عنه إنه متعدِّد المواهب ، ولكنه وحدَه كان ينكر ذلك ويستنكره ، ويؤكِّد أنه لا يمتّ لذلك بأدنى صِلَة ..

كان يشعر دَوْمًا ، وفى كل المجالات ، أنه غريب ..

طائر غريب ، يحلِّق فى سماء تلفظه ، ويهبط فى عش من الأشواك والجراح ..

طائر غريب فى دنيا مجهولة ..

وعلى عكس أشقَّائه أيضًا ، كان دائمًا متفوِّقًا ..

صحيح أنه لم يحصل أبدًا على المركز الأوَّل ، ولكنه كان دَوْمًا أحد البارزين فى دراسته ، بحيث حصل فى الثانوية العامَّة على مجموع مرموق ، أتاح له الالتحاق بكلية الطبّ ..

وأصبح (حسن) يحمل لقب (دكتور) ..

لقد حمله فى منزله ، وبين أقاربه وأصدقائه ، منذ اليوم الأوَّل له فى كلية الطب ..

ومن العجيب أن هذا اللَّقب لم يَرُق له أبدًا ..

كان يشعر فى أعماقه بسخرية مريرة ، كلما ناداه أحدهم به ..

تفكيره المنطقىّ كان يرفض اللقب تمامًا ..

حتى بعد حصوله على بكالوريوس الطب ، كان يرفض اللَّقب ، ويؤكِّد دَوْمًا أنه لقب مستورد ، وأن لقبه الحقيقى هو لقب (طبيب) ، حتى يحصل على شهادة الدكتوراه ، وعندئذ فقط يستحق لقب (دكتور) ..

هكذا هو دائمًا ..

يرفض كل مألوف ، ما دام يتنافى مع عقله ومنطقه ..

وعقله ومنطقه كانا دَوْمًا سرّ تعاسته ..

كان يؤمن تمامًا بأن العقل والمنطق هما أساس كل تعامل ، ويرفض مجرَّد الاستماع إلى قول يتجاهلهما ، مما حكم عليه دَوْمًا بأن يظلّ غريبًا ، مُنطويًا ، وحيدًا ..

كل اهتماماته كانت فرديَّة ..

كل مواهبه لا تحتاج إلى زميل أو رفيق ..

لم يكن له أصدقاء ..

كان يفضّل الوَحْدَة ..

يجيد التعامل مع نفسه ..

يجد سلْواه فى مجالسة عقله ..

حتى ظهرت هى فى حياته ..

(مها) ..

زميلته الناعمة الناعسة ..

الوحيدة التى سمح لها باجتياز حاجز وحدته ..

كلّا ..

هى التى اقتحمت هذا الحاجز ، دون حتى أن تستأذنه ..

كان ذلك فى السنة النهائيّة من الكليّة ..

فى أوّل أيام سنته الدراسية الأخيرة بالكلية ، وعامها الثالث ..

فى ذلك اليوم التقيا لأوّل مرّة ..

« (حسن) .. » ..

نطقتها الأم هذه المرّة فى همس مبالغ فيه ، وكأنما تخشى أن يسمعها ابنها ، وأن يطيعها ، فيستقل طائرته ، ويمضى إلى حيث لن يمكنها رؤيته ، لعدد من السنين ، لايعلمه إلّا الله (سبحانه وتعالى) ..

ولكنه سمعها ..

هذه المرّة انتزعه نداؤها من شروده ، وقطع حبل ذكرياته ، فالتفت إليها فى هدوء ، وملأ عينيه وقلبه بملامحها الحنون ، قبل أن يتمتم :

ــ نعم يا أُمّاه .

كان ينطقها فى عاطفة ، كعادته كلما غلبه الانفعال ، فخفق لصوته قلب أُمّه ، وازداد له صوتها همسًا ، وهى تقول :

ــ الطائرة .

رسم على شفتيه ابتسامة شاحبة ، وهو يغمغم :

ــ لقد انتهيت من إعداد حقيبتى .

قالها وأغلق الحقيبة فى هدوء ، ثم حملها على كتفه ، مستطردًا :

ــ سأذهب .

خفق قلبها فى قوّة ، وهى تقول فى لهفة :

ــ الآن ؟!.. على الفور ؟!

عاد يبتسم نفس الابتسامة الشاحبة ، وهو يغمغم :

ــ لم يعُد هناك وقت .

هتفت فى حرارة ، وهى تتشبّث بذراعيه ، وتضغطهما فى قوّة :

ــ سأذهب معك .

ربَّت على كتفيها ، قائلًا :

ــ ألم نتفق يا أمَّاه ؟!.. إننى أكره لحظات الوداع ، سأذهب مع أبى و (أحمد) فحسب .. هذا أفضل .

برز رأس (أحمد) داخل الحجرة ، فى اللحظة ذاتها ، وهو يقول :

ــ هيَّا يا (حسن) .. لقد وصلت السيَّارة .

شعر بأصابع أمِّه تزداد غوصًا فى ذراعيه النحيلتين ، فابتسم ابتسامة مرتجفة ، وهو يتطلَّع إلى عينيها ، اللتين اغرورقتا بالدموع ، قائلًا :

ــ معذرة يا أمَّاه .. لابُدَّ لى من أن أذهب .

تفجَّرت الدموع من عينيها ، وهى تهتف :

ــ أرسل خطاباتك دوْمًا يا (حسن) .. أنت أوَّل ابن يفارقنا يا ولدى .

ربَّت على كتفها فى حنان ، وهو يقاوم دمعة متصارعة فى عينيه ، فى حين ارتفع صوت أبيه ، وهو يقول فى عاطفة :

ــ هكذا (حسن) دائمًا .. لايفعل أبدًا ما يفعله الآخرون .

لم يكن الأب ينطقها فى حزن أو غضب .. وإنما فى حنان ..

كم هو حنون هذا الأب ..

كم هو طيِّب القلب ..

لولا خُنوعه ، واستسلامه لسُلَّمه الوظيفى ، لاعتبره (حسن) أفضل مخلوق فى الدنيا ، ولكنه ــ للأسف ــ يراه دوْمًا مفتقرًا إلى الطموح ، لايشبه ــ بأى حال من الأحوال ــ آباء زملائه ، الذين يَرْفُلون فى الثراء ..

ولكنه يحب فى والده صفة واحدة ، تَجُبُّ فى رأيه كل نواقصه ..

الشرف ..

لقد عاش عمرَه شريفًا ، لم يرتش أو يختلس ..

عاش صارمًا قويًّا فى الحق ..

وربَّما لهذا لم ولن ينعم أبدًا بالثراء ..

إنه يشبه والد (مها) ..

يشبهه فى كوْنهما شريفين ، يتألَّقان فى مجتمع حكومىّ ، ويعانيان الفقر الاجتماعىّ فى حياتيهما العامَّة ..

ربَّما كان هذا ما قرَّبه من (مها) ..

لا .. ليس هذا ..

إنها شخصيتها .. شخصيتها الرائعة ..

« هيَّا يا (حسن) .. » ..

قاده والده إلى الخارج ، فانحنى يقبِّل وجنة أمه ، التى قبَّلته فى لهفة .. بل أمطرت وجهه بالقُبلات والدُّموع ، وهى تدعو له بسلامة الرَّحيل والوصول ، والنجاح فى مسعاه ..

أمَّا شقيقه (وهبى) ، فقد اكتفى بمصافحته بابتسامة حزينة ، قائلًا فى صوته الخافت :

ــ لا تتغيَّب طويلًا .

لم يقُل سوى هاتين الكلمتين ، ثم ترك شقيقه لـ (حنان) ، التى عانقته وهى تبكى بدوْرها ، وهتفت :

ــ ستوحشنا كثيرًا .

ابتسم ، وهو يربِّت على رأسها ، مغمغمًا :

ــ سأحضر لك أدوات الزينة التى طلبتها ، عند عودتى بإذن الله .

تضاعف انهمار دموعها ، وهى تهتف :

ــ المهم أن تعود إلينا بالسلامة .

خلَّص نفسه من بين ذراعيها ، وأسرع يهبط فى درجات السُّلَّم ؛ ليبتعد عن كل هذا الموقف الحزين ..

إنه حقًّا يكره لحظات الفِراق ..

وفى هذا المِضْمار ، هناك لحظة لم تفارق ذهنه أبدًا .. لحظة فراقه لـ (مها) فى الصباح السابق ..

ما زال يذكر سؤالها :

ــ أمن الضرورىّ أن تسافر ؟

ــ نعم .. إنه مستقبلى .

ــ ألن يصلح مستقبلك هنا ؟

ــ كلَّا .

ــ من قال هذا ؟

ــ المنطق والعقل ، و .....

ــ وماذا ؟.. ألا تؤمن بالنصيب ؟

ــ بلَى ، ولكن هذا لا يتعارض مع السَّعْى .

ــ ولكنك لا تسافر للعمل ، بل لنيل درجتى الماجستير والدكتوراه .

ــ هذا أيضًا سعى .

ــ بل هو عِناد .

ــ عناد ؟!

ــ نعم .. لقد أغضبك أن الكلية قد رفضت تعيينك فيها ، فأصررت على أن تحصل على درجة الماجستير قبل (فتحى) ، الذى قبلوا تعيينه بدلًا منك ، و .....

ــ كَفَى يا (مها) .

ــ هل ضايقك أننى أتحدَّث فى صراحة ؟

— أتسمّين هذه الاستنتاجات صراحة ؟

— نعم .. لأننى أومن بصحتها .

— وأنا أرفضها .

— حسنًا يا (حسن) .. لن نتشاجر .. سافر ، ما دام هذا يُروق لك ، ولكن عُد .. عُد كما أنت ، بعد أن تنتهى من دراستك .

كم بدت له عيناها العسليتان كبحر عميق ، يفُوق عمق صوتها ، وهى تنطق عبارتها الأخيرة ..

كم بدت له حانية متلهّفة ، وهى تودّعه ..

لقد احتفظ بكفّها الرقيقة فى راحته طويلًا ، حتى تخضّب وجهها بحُمرة الخجل ، وهتفت فى حياء :

— (حسن) ..

ترك كفّها ، وأسرع ينصرف ، ويفرّ كعادته من لحظات الوداع ، وكلمتها الأخيرة تُدوّى فى أذنيه :

— عُد يا (حسن) .. عُد كما أنت .

كان يسبح فى هذه الذكريات ، عندما اخترق صوت والده الهادئ أذنيه ، وهو يقول :

— لقد وصلنا .

انتفض جسده فى قوّة ، وهو يتطلّع إلى المطار ، والسيّارة تقترب منه فى سرعة ..

لقد حانت لحظة المواجهة ..

لحظة الفراق ..

وفى عصبيّة ، أفرغ توتّره ، قائلًا :

— يا لهؤلاء المصريين !.. لماذا يحشدون سيّاراتهم هنا ؟

ابتسم والده فى حنان ، وهو يقول :

— أمِنَ المحتّم أن يكون هناك دوْمًا ما يُخنقك ؟

زادت العبارة من عصبيّته وتوتّره كثيرًا ..

إنها عبارة حقيقية بالفعل ..

هناك دائمًا ما يُخنقه ، وما يُؤرّقه ..

كل الناس يبدون له مخالفين للمنطق ..

كلهم يتصرّفون على نحو شديد التعقيد ، يضيع أعمارهم وحياتهم هباء ؛ للحفاظ على تقاليد بالية عتيقة ، لا تتفق مع عقل أو منطق ، أو دين أو شريعة ..

دائمًا يصيبونه بالخنق ..

دائمًا ..

وفى المطار ، ودّع والده وشقيقه فى حرارة ، وترك والده يشدّ على يده ، وهو يقول فى حنان :

ــ احرص على مبادئك ، وتقاليدك هناك يا ولدى .

تمتم فى توتُّر :

ــ سأفعل .

ثم عانَق شقيقه ، وانطلق ..

وسُرْعان ما انطلقت به الطائرة بعيدًا ..

وحلَّق مبتعدًا كطائر ..

طائر غريب ..

* * *



٢ ــ فى السمـاء ..

« أهى أوَّل مرَّة ؟ .. » ..

انتزعه سؤال الراكب المجاور له من شروده ، وهو يتطلَّع من نافذة الطائرة إلى (مصر) ، التى راحت تبتعد وتبتعد ، مع مزيج من التوتُّر والانقباض واللهفة والحزن ، ونهر من الذكريات ، فأدار عينيه إليه فى بطء ، وخُيِّل إليه أنه يراه لأوَّل مرَّة ، بعد أن حلَّقت الطائرة ، فراح يتفرَّس فى ملامحه المكتنظة ، ووجهه البدين ، ويقارن دون وَعْيٍ منه بين جاره الضخم الجثة ، وجسده هو النحيل ، قبل أن يبتسم جاره فى هدوء ، ويقول فى بساطة :

ــ اسمى (علَّام) .. (منصور علَّام) .

أسرع يقول فى توتُّر :

ــ وأنا (حسن) .. (حسن لطفى) .

عاد (علَّام) يكرِّر سؤاله فى هدوء :

ــ أهى أوَّل مرَّة تسافر فيها خارج (مصر) ؟

تمتم (حسن) :

ـ نعم .

ثم عاد يسأله فى اهتمام :

ـ ولكن كيف عرفت ؟

اتسعت ابتسامة (علَّام) تملأ وجهه المكتظ كله ، وهو يقول :

ـ لقد حلَّقت الطائرة منذ دقائق ، ولكنك لم تحل حزام مقعدك بَعْدُ ، وهذا لا يحدث إلَّا مع من يسافر لأوَّل مرَّة عادةً .

أومأ (حسن) برأسه إيجابًا فى توتُّر ، وهو يغمغم :

ـ هذا صحيح .. إنها أوَّل مرَّة .

عاد الرجل يسأله فى شغف :

ـ عمل ؟!

هزَّ (حسن) رأسه نفيًا ، وهو يغمغم فى توتُّر :

ـ بل دراسة .

أومأ الرجل برأسه متفهِّمًا ، وقال :

ـ هذا عظيم .. أيَّة شهادة تحمل ؟

أجابه (حسن) فى خفوت :

ـ بكالوريوس الطب والجراحة .

رفع الرجل حاجبيه فى دهشة ، وقال :

ـ لماذا لم تدرس فى (مصر) إذن ؟.. لقد حصل ابن شقيقتى على نفس شهادتك هذه ، واستكمل دراسته فى (مصر) ، وهو يحمل الآن درجة زمالة كلية الجرَّاحين الملكيِّين بإنجلترا ، دون أن يُضْطَرَّ إلى السفر إلى (لندن) ، مثلما تفعل أنت .

تمتم (حسن) :

ـ لقد سعيت طويلًا ، حتى حصلت على تلك المنحة .

سأله (علَّام) فى اهتمام :

ـ أهى منحة مجَّانية ؟

شعر (حسن) بالسؤال يؤلمه ..

نعم ..

إنها منحة مجَّانية ..

كان من المستحيل أن يتخطَّى حدود (مصر) ، دون منحة مجَّانية ..

مرتَّب والده لعامين كاملين لا يكفى لشراء تذكرة الذَّهاب والعَوْدة ، وإقامة لمدة شهرين فى (لندن) ..

كانت المنحة المجَّانية هى فرصته الوحيدة ..

حتى مرتَّبه كطبيب لن يكفيه أسبوعًا واحدًا هناك . حتى ولو اكتفى بشرائح البطاطس والماء ..

وفى عصبيَّة ، أجاب :

ــ نعم .. إنها مجَّانية .

كان يتوقَّع نظرة إشفاق أو ازدراء من الرجل ، إلَّا أنه قد فوجئ به يهتف فى إعجاب :

ــ رائع .. إننى أحب الشبَّان المكافحين من أمثالك .. أتعلم؟.. لو أنك جواد فى مضمار السباق ، لراهنت عليك بلا تردُّد .

ساءه أن يشبهه الرجل بالجواد ، فقال فى حِدَّة :

ــ إنَّما أنا شاب عادىّ ، من أسرة فقيرة .

هتف الرجل :

ــ وهذا ما يجعل الصورة رائعة .

ثم انتزع حافظته من جيب سترته ، والتقط منها بطاقة ، ناولها له ، مستطردًا فى حماس :

ــ خُذْ .. هذه بطاقتى .. يمكنك الاتصال بى عندما تعود إلى (مصر) .. وثق أننى سأجد لك عملًا مناسبًا آنذاك .

تمتم وهو يلتقط البطاقة ، ويدسُّها فى جيبه بلا حماس :

ــ بإذن الله .

ابتسم (علَّام) ابتسامة عريضة ، ثم اعتدل ، وأسبل جفنيه ، قائلًا :

ــ مَعْذِرةً .. سأخلد بعض الوقت للنوم . فقد أمضيْتُ يومًا مرهقًا .

ثم عاد يفتح أحد جفنيه ، ويغمغم مبتسمًا :

ــ ولاحظ أنك لم تحلَّ حزام مقعدك بعدُ .

ارتبك (حسن) ، وأسرع يحلُّ حزام المقعد ، ثم حاول أن يسترخِىَ ، أو ينعم بقدر من النوم كالرجل ، إلَّا أن هذا بدا له عسيرًا ، فعاد يتطلَّع من النافذة ، وعاد عقله يسبح فى نهر الذكريات ..

* * *

كان ذلك اليوم هو بداية عامه الدراسىّ الأخير ، وكان قد اتَّجه إلى الكلية وحده كالمعتاد ، واكتفى بتحية مقتضبة ، ألقاها على زملاء الدراسة ، قبل أن ينتحِىَ ركنًا قَصِيًّا ، ويجلس صامتًا ، يراقب الجميع فى هدوء ..

كانت إحدى هواياته ..

أن يجلس ، ويراقب ..

كان يشعر بمتعة شديدة فى تفحُّص الوجوه ، ومحاولة قراءة ما تخفيه الأنفس ..

وكان الجميع يبدون له كأنهم يرتدون أقنعة زائفة ..

الفتيات تأنَّقن تأنُّقًا مبالغًا فيه وكأنهن فى حفل ساهر ، لا فى مكان يتلقين فيه العلم ..

والفتيان راحوا يتسمون ابتسامات زُلْفى مصنوعة ، وكل منهم يستعرض مهاراته ، ورصيد النكات والدُّعابات ، الذى يتدرَّب عليه منذ بدأت إجازة العام الماضى ؛ ليؤكِّد لنفسه أنه شخصية طريفة ، يمكنها اجتذاب الجميع ..

مسرح كبير ، يبذل ممثلوه أقصى جهدهم ؛ ليؤدِّىَ كل منهم فيه دَوْرَ البطولة ..

وراح يتساءل ..

لم لا يُلقون عن كاهلهم عِبْء التظاهر ؟..

لم لا يتعامل كل منهم بطبيعته ؟..

لماذا يلجأ الجميع إلى كل هذه التعقيدات ؟..

وبينما سبح فى تساؤلاته ، سمع من خلفه صوتًا أنثويًا رقيقًا يقول :

ـ هل يرُوق لك المشهد ؟

التفت فى دهشة إلى صاحبة الصوت ..

وكانت (مها) ..

وحدها بدت بسيطة الملبس فى ذلك اليوم ، الذى تحوَّل إلى مهرجان للأزياء ..

كانت ترتدى سِرْوالًا أمريكيًا أزرق ، من ذلك النوع الذى يرتديه رعاة الأبقار هناك ، وقميصًا يجمع بين اللونين الأزرق والأحمر ، فى تقاطعات هادئة رقيقة كملامحها ..

وكانت تبتسم ابتسامة رقيقة ، بشفتيها الصغيرتين ، وتتطلَّع إليه بعينين عسليتين واسعتين ، تعبث فيهما ضحكة مَرِحة ، تتألَّق على وجنتيها المستديرتين ، وذقنها الدقيقة ..

وكان شعرها مُصَفَّفًا على نحو بسيط ، أشبه بذيل الحصان ، يتوسَّطه شريط من نفس قماش القميص وألوانه ، مما منحها بالإضافة إلى جسدها الضئيل ، مظهر طالبة فى المدرسة الثانوية ، خاصَّةً وهى تجلس إلى جواره فى بساطة ، مستطردة :

ـ قُلْ بالله عليك : ألا يبدو لك المشهد أشبه بمسرحية هزلية ؟!

حدَّق فى وجهها فى دهشة ..

لقد نطقت بما يدور فى ذهنه بالضبط ..

نطقته فى بساطة متناهية ، ثم لم تنتظر حتى جوابه ، لتضيف ضاحكة :

ـ إنه مهرجان للأزياء .
وجد نفسه يتمتم مشدوها :
ـ بالضبط .
ضحكت فى مَرَح ، وهى تقول :
ـ كم يضحكنى كل ما يبذلونه من جهد .. لِمَ لا يتصرَّف كل منهم بطبيعته ؟
مرَّة أخرى راح يحدِّق فى وجهها مشدوهًا .
كانت كأنما تنتزع الأفكار من رأسه ، وتضعها على لسانها ، لتُلقِيَ بها من بين شفتيها ، دون أن تنتظر منه جوابًا ..
وفجأة .. التفتت إليه ، وهى تبتسم قائلة :
ـ أظن أنه ينبغى أن نتعارف أوَّلًا .. أنا (مها) .
تمتم :
ـ وأنا (حسن) .
اتسعت ابتسامتها ، وهى تقول :
ـ أعلم .. (حسن لطفى) .
بلغت دهشته ذِرْوَتها هذه المرَّة ، وهو يهتف :
ـ هل تعرفيننى ؟
أجابته ضاحكة :
ـ بالطبع .

ثم أضافت فى مَرَح :
ـ ومَنْ فى الكلية كلها تجهل غريب الدار ؟
سألها فى دهشة :
ـ مَنْ ؟!
أجابته ضاحكة :
ـ غريب الدار .. اسم أغنية (وديع الصافى) الشهيرة.. إنهم يطلقون عليك هذا الاسم .
هتف فى دهشة وغضب واستنكار :
ـ علىَّ أنا ؟!
تطلَّعت إليه فى قلق ، وتلاشت ابتسامتها ، وهى تقول :
ـ هل أغضبتك ؟
كان قولها قد أغضبه بالفعل ، إلَّا أنه خشى أن يعلن غضبه ، فكتمه فى أعماقه ، وهو يهز كتفيه ، قائلًا :
ـ كلَّا .
إلا أنَّ فضوله هزمه ، فعاد يقول فى حِدَّة :
ـ ولكن لماذا يطلقون علىَّ هذا الاسم ؟
قالت فى بساطة :
ـ لأنك بالفعل غريب الدار .
ثم اعتدلت ، والتقطت نفسًا عميقًا ، قبل أن تستطرد :

ـ إنك دائمًا وحيد منعزل .. لا تصادق أحدًا ، أو تشارك فى أيّة نشاطات ، ولكنك فى الوقت ذاته مهذَّبٌ بسيطٌ ، وهذا يجعل منك فى مجملك شخصية غريبة ، وهذا ما جعلنا نمنحك هذا الاسم .

عقد حاجبيه فى ضيق ، وهو يقول :

ـ نشاطات الكلية لا ترُوق لى .

قالت فى اهتمام :

ـ ربَّما لأنك لم تجرِّبها بَعْدُ .

هزَّ رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ على العكس ، لقد اختبرت كل هذه النشاطات ، خلال المرحلة الثانوية ، وسئمتها كلها .

سألته فى شغف :

ـ وماذا عن الصداقات ؟

قال فى توتُّر :

ـ لست أبحث عنها .

سألته :

ـ لماذا ؟

أجابها فى حِدَّة :

ـ لأننى أكره الأسئلة .

تراجعت فى دهشة ، ثم ابتسمت فى خجل وحياء ، مغمغمة :

ـ هل ضايقتك إلى هذا الحدّ ؟

كان يرغب فى أن يصدم مشاعرها ، ويقول إنها قد ضايقته حقًّا ، إلَّا أنه وجد نفسه يهتف فى لهفة :

ـ مطلقًا .

بدا وكأنها قد شعرت بلهفته ، فقد تألّق وجهها بابتسامة عذبة رقيقة ، وهى تقول :

ـ أحقًّا ؟!

أشاح بوجهه ، قائلًا :

ـ لست أقول أبدًا إلَّا ما أشعر به .

هتفت فى حماس :

ـ وأنا كذلك .

ثم أضافت فى حياء :

ـ هذا يجعل منَّا صديقين مثاليَّين .. أليس كذلك ؟

كان يفضِّل أن يبقى مُشيحًا بوجهه ، إلَّا أنه شعر بدافع قوىّ للالتفات إليها ، والتطلُّع إلى جمالها الرقيق ، فاستسلم لرغبته ، واستدار إليها بوجهه كله ، وابتسم مرتبكًا ، ومغمغمًا :

ــ بلى .
مدَّت كفَّها الرقيقة لتصافحه ، هاتفة فى مَرَح :
ــ اتفقنا ..
وتصافحا ..
بل امتزجت أصابعهما ..
ومشاعرهما ..
وقَدَرَاهما ..

* * *

« استيقظ .. » ..
لم يدرِ متى ولا كيف استسلم للنوم ، إلَّا عندما سمع (علَّام) يقول ذلك ، فانتفض فى مَقْعَدِه ، وتطلَّع عَبْرَ نافذة الطائرة فى دهشة ، على حين ابتسم جاره البدين ، وهو يقول :
ــ لقد وصلنا .. هيَّا .. اربط حزام مَقْعَدِك .
راح يربط حزام مَقْعده ، وهو يغمغم مرتبكًا :
ــ لست أدرى كيف استسلمت للنوم ، لاريب أنه الإرهاق .. لقد قضيت الليل كله ساهرًا .
ابتسم (علَّام) ، وهو يقول :
ــ كان هذا أفضل لك ، فلقد تعرَّضت الطائرة لمطبٍّ هوائىّ ، ونظرًا لأنك تسافر لأوَّلِ مرَّة ، كان من الممكن أن يصيبك هذا بالرُّعب .

تمم فى توتُّر :
ــ ليس إلى هذا الحدّ .
قالها وأطبق شفتيه أمام لسانه ، وكأنما يرغب فى الصمت ، واكتفى بأن يتطلَّع من النافذة إلى مطار (هيثرو) بـ(لندن) ، والطائرة تهبط إليه ..
وبدأ جسده يرتجف ، حتى أنه لم يشعر بهبوط الطائرة ، حتى سمع جاره يقول فى هدوء :
ــ حمدًا لله على سلامتك .. هيَّا .. (لندن) تفتح ذراعيها لك .
تمم بعبارة ، لم يفهم هو نفسه معناها ، واتجه مع الرجل إلى خارج الطائرة ..
لقد وصل إلى (لندن) ..
وصل إلى العاصمة ، التى اختارها لمواصلة كفاحه ..
وسَرْعان ما أنهى إجراءات وصوله ، وصحبه (علَّام) إلى خارج المطار ، وهو يقول :
ــ هل ترغب فى الذَّهاب إلى مكان ما ؟.. إننى أعرف (لندن) كلها ، ويمكننى أن أعاونك لو أردت .
تمم فى خجل :
ــ شكرًا .. إننى أعرف طريقى .
ابتسم (علَّام) فى حنان ، وهو يقول :

ــ حسنًا .. بطاقتى تحوى رقم هاتفى فى (لندن) ، لاتتردَّد فى الاتصال بى ، فى أيَّة لحظة تحتاج فيها إلى مساعدة من أىّ نوع .

تمتم (حسن) :

ــ سأفعل بإذن الله .

لوَّح له (علام) بكفِّه فى حرارة ، ثم أسرع إلى سيَّارة تنتظره ، وكرَّر وهى تنطلق به :

ــ اطلبنى وقتما تحتاج إلىَّ .

هتف (حسن) خلفه :

ــ شكرًا لك .

ثم زفر فى قوَّة ، واتجه إلى مكتب البرقيَّات ، وأرسل برقيتين ، تحويان عبارة واحدة :

ــ لقد وصلت .

إحداهما أرسلها إلى والديه ، والأخرى إليها ..

إلى (مها) ..

وفى هذه اللحظة بدأ الطائر رحلته ..

رحلة غريب فى بلاد غريبة ..

* * *

٣ ــ الغُـربة ..

(لندن) ..

عاصمة الضَّباب ..

المدينة التى لاتتغيَّر أبدًا ..

دارت كل تلك الأسماء فى عقل (حسن) ، وهو يجلس متوتّرًا فى سيارة الأجرة ، التى استقلَّها من المطار إلى مبنى الجامعة ، التى سيستكمل فيها دراسته الطويلة ، وعيناه تتفحصان كل ما حوله ، ومَنْ حوله ..

كانت بداية اليوم فى (لندن) ..

الشوارع نظيفة لامعة ، لَمْ تفقد بعدُ قطرات النَّدى الكثيفة ، التى يولِّدها ضباب الليل ..

الناس يمضون فى طريقهم فى خُطوات سريعة نشطة ..

كلهم يرتدون ثيابًا نظيفة أنيقة ..

كلهم ..

وشعر (حسن) بنشوَة جارفة ..

هذا هو المجتمع الذى يحلُم به ..

مجتمع البساطة والنظافة ..

مجتمع الحضارة ..

وفى شغف ، راح يقارن بين تلك الوُجوه ، وبين مثيلاتها فى (مصر) ..

الجميع هنا فى طريقهم إلى عملهم ، بثياب بسيطة أنيقة ، حتى النساء ، يرتدين أبسط الثياب ، ولسْنَ كنساء (مصر) ، اللَّاتى يذهبن إلى عملهن متأنّقات ..

هذا هو المجتمع ، الذى كان ينبغى له أن يولد فيه ويعيش ..

استغرقته المقارنات ، حتى سمع سائق السيارة ، يقول فى إنجليزيته العتيقة :

ـ لقد وصلنا يا سيِّدى .

تمتم (حسن) بإنجليزيته هو :

ـ شكرًا .

وغادر السيارة متوتّرًا ، وسأله السائق فى حَيْرة ، وهو يتطلَّع إليه :

ـ ألَمْ تقُل إنك عربىّ ، من بلاد البترول ؟

ابتسم (حسن) ، قائلًا :

ـ أنا عربىّ مصرىّ .

سأله السائق فى اهتمام :

ـ أليس لديكم بترول ؟

تمتم (حسن) :

ـ بلَى ، ولكنه يكفينا فحسب .

مطَّ السائق شفتيه ، وقال :

ـ لقد قدَّرت ذلك .

جاء دَوْر (حسن) ليشعر بالحَيْرة ، وهو يغمغم :

ـ لماذا ؟

أجابه السائق ، وهو يدير محرِّك السيَّارة ، استعدادًا للانطلاق مبتعدًا :

ـ لأنك لم تدفع بقشيشًا .

قالها وانطلق مبتعدًا ، لا يلوِى على شىء ، وتاركًا خلفه (حسن) مُخْتنقًا ..

أى بقشيش هذا الذى يطلبه ؟!..

ألا يعلم أن أجر السيَّارة وحده ، قد انتزع ربع ما أتى به (حسن) ؟!..

ألا يعلم أن أجر السيَّارة وحده ، قد انتزع ربع ما أتى به أباطرة البترول ؟!..

حمل حقيبته فى حَنَق ، واجتاز فناء الكلية فى تردُّد ..

حتى فى المجتمع الجامعىّ ، كان كل شىء يختلف عن (مصر) ..

كان الجميع يرتدون ثيابًا بسيطة، أنيقة، ذكّرته كثيرًا بـ(مها) ..

كم يشتاق إليها، على الرغم من أنه لم يفارقها سوى منذ يومين ..

كم يتوق إلى التحدُّث معها ..

كم يهواها ..

إنه لايدرى متى تحوّلت صداقتهما إلى حبٍّ جارف ..

كل مايدريه هو أنهما كانا يتفقان فى كل شىء تقريبًا ..

فى أسرتيهما ..

فى آرائهما ..

فى نظرتهما للحياة والبشر ..

لم يختلفا إلّا فى كوْنها ابنة وحيدة لوالديها، وفى رفضها لفكرة سفره إلى (لندن)، لاستكمال دراسته ..

ولقد كانت على حقٍ فى تبريرها لموقفه ..

لقد سافر حقًّا كنوع من التحدّى ..

كوسيلة لإثبات أنه قادر على إتيان ماحرموه منه فى الجامعة ..

هكذا حياته دَوْمًا ..

سلسلة من التحدّيات ..

محاولة دائبة؛ لإثبات أنه ليس أقل من أقرانه، بل أكثر نجاحًا وتفوُّقًا ..

وفى هذه المرَّة، عليه أن يجتاز تحدّيًا جديدًا ..

عليه أن يلتقى بمدير الكلية، ويثبت له أنه يستحق تلك المنحة ..

وفى مكتب المدير، راح هذا الأخير يتفحّصه فى هدوء بارد، شأن معظم أهل تلك البلاد، قبل أن يسأله :

ــ قُلْ لى يا مستر (حسن) .. لماذا لم تستكمل دراستك فى موطنك ؟

غمغم (حسن) :

ــ وجدت أن استكمالها هنا أفضل .

مطَّ الرجل شفتيه، وكأنما لم تَرُق له إجابته، وقال فى استهانة :

ــ إنك تحتاج إلى تحسين لغتك الإنجليزيـة يا مستـر (حسن) .

أدهشت العبارة (حسن)، فغمغم فى توتُّر :

ــ كنت أظن لغتى جيِّدة ياسيِّدى .

قال الرجل فى صرامة :

ــ ليس فى (إنجلترا) .

ثم تشاغل بتقليب عدد من الأوراق أمامه ، وهو يقول :
ــ حسنًا .. سأمنحك مهلة لتحسين لغتك ، خلال ستة أشهر ، وبعدها سنرىٰ ما إذا كنت تستحقَ المِنْحة أم لا .
شعر (حسن) بغُصَّة فى حلقه ، وهو يسمع هذا القول ، إلا أنه لم يَسَعْهُ سِوَى أن يغمغم :
ــ كما ترى يا سيِّدى .
عاد الرجل يتفحَّصه فى صمت ، قبل أن يستطرد :
ــ وخلال تلك الفترة ، ستحصل على مبلغ يكفى نفقاتك الشخصية ، أمَّا عن الإقامة والطعام ، فسيتكفَّل بهما مستر (كين) ، الذى سيدرِّس لك اللغة الإنجليزية ، للأشهر الستة القادمة .
عاد (حسن) يغمغم :
ــ كما ترى يا سيِّدى .
تناول المدير ورقة من أمامه ، وناولها لـ(حسن) ، قائلًا فى غطرسة :
ــ خُذْ .. هذا عنوان مستر (كين) .. سأبلغه بالأمر هاتفيًا .. اذهب إليه على الفور .
تمتم (حسن) فى مرارة :
ــ كما تأمر يا سيِّدى .

وتردَّد لحظة ، ثم سأل :
ــ معذرة يا سيِّدى .. ولكن كيف أصل إليه ؟
رفع الرجل حاجبيه فى دهشة واستنكار ، وهتف :
ــ أتسألنى يا مستر (حسن) ؟.. إنه شأنك يا فتى ، لا شأنى أنا .
ارتبك (حسن) ، وهو يغمغم :
ــ بالطبع يا سيِّدى .. بالطبع .. مَعْذِرةً .
غادر مكتب المدير وهو شديد التوتُّر ، جمّ الحَنَق والغضب ..
إنه لم يترك موطنه ، ليُعامل هكذا ..
إنه لم يفارق وطنه ، لتتلقَّفه الأيدى بكل الازدراء والتعالى ..
وألقى نظرة على عنوان مستر (كين) هذا ، فتصاعد الحَنَق فى نفسه ..
إنه لا يقيم قريبًا ..
بل لا يقيم فى (لندن) كلها ..
إنه يقيم فى (دوفَر) ..
كيف سيذهب إليه إذن ؟..
ومتى ؟..

هل ستكفى تلك الجنيهات الإسترلينية الباقية معه ، كنفقات لسفره إلى (دوفر) ؟

كل هذه الأسئلة دارت بذهنه ، ولكنه لم يلبث أن نفضها عنه فى عناد ..

سيذهب إلى (دوفر) ..

سيواجه هذا التحدّى الجديد ..

إنه لن يستسلم ..

سيواصل طريقه وصموده ..

ومع مغيب الشمس ، توقّف به القطار فى (دوفر) .. الميناء البريطانىّ الشهير ..

مدينة ذات طابع عريق ، ينافس طابع (لندن) ، ويتفوّق عليها برائحة البحر المنعشة ..

هناك أيضًا كل شىء نظيف أنيق ، ولكن المحالّ التجارية لا تستخدم تلك اللافتات العربية ، كمتاجر (لندن) ..

كل شىء فى (دوفر) إنجليزىّ قُحّ ..

كل شىء يحمل عَبَق الماضى ، ورحيق المستقبل ..

وتوقّف (حسن) لحظات ، يملأ صدره وعينيه بجمال المدينة ، ثم بدأ يبحث عن عنوان مستر (كين) ..

وهنا اصطدم بشىء عجيب ..

لم يكن هناك من يمكنه أن يساعده ..

الجميع كانوا يتحرّكون على نحو سريع متوتّر ، ولا يرغبون فى التوقّف حتى لإرشاده ، وإذا ما توقّفوا ، كانت مساعدتهم له على هيئة إشارات مُبهمة عاجلة ، لا يمنحونه الوقت الكافى حتى للاستفسار عنها ..

ولقد أزعجه هذا كثيرًا ..

وفى النهاية ، لم يجد أمامه سوى الاتصال بهاتف مستر (كين) ، المدوّن فى تلك الورقة ، التى أعطاه إيّاها مدير الكلية ..

ولقد فعل ..

ظلّ يستمع إلى رنين الهاتف ، على الطرف الآخر طويلًا ، قبل أن يلتقط أحدهم سمّاعة الهاتف ، ويسمع هو صوتًا رقيقًا ، يقول بالإنجليزية :

ـ منزل مستر (كين) .. من المتحدّث ؟

أجاب فى تلعثم :

ـ أنا (حسن) .. (حسن لطفى) ..

هتفت صاحبة الصوت الرقيق :

ـ أوه !! .. مستر (حسن) .. إننا ننتظرك منذ وقت طويل ، لقد اتّصل بنا مدير الكلية من (لندن) فى الصباح ، وأخبرنا أنك فى طريقك إلينا .

تمتم فى توتُّر :

ـ معذرةً .. لم أستطع القدوم قبل الآن ، فمواعيد القطارات لم تسمح لى سوى بهذا .

هتفت فى دهشة :

ـ ولِمَ لَمْ تستقلّ إحدى سيّارات الأجرة ؟

شعر بمرارة لسؤالها ، الذى ذكّره بأن المبلغ الذى بقى فى جيبه لا يكفى حتى لاستئجار عربة تجرّها الخيول ، وقال فى توتُّر :

ـ لاتنسَىْ أننى غريب .

قالت فى سرعة :

ـ بالطبع .. قُلْ لى : متى ستأتى ؟

قال مرتبكًا :

ـ حالَما أعرف وسيلة الوصول .

قالت فى اهتمام :

ـ يمكنك أن تستقلّ سيارة ، و .....

قاطعها فى عصبيَّة :

ـ ألا توجد وسيلة أخرى ؟

قالها فى حَنَق ، لأنها تكشف قِلَّة ما لديه من مال ، فهتفت هى :

ـ أوه !! لقد فهمت .

ضاعف هذا من حَنَقه ، فقد بيَّن له أنها قد أدركت فقرة ، فعضَّ على شفتيه فى مرارة ، حتى كاد يدميهما ، وهو يستمع إليها تستطرد :

ـ حسنًا .. سآتى أنا إليك .. قُلْ لى .. أين أنت ؟

أجابها فى حِدَّة :

ـ عند محطَّة القطار .

قالت فى سرعة :

ـ سأصل بعد سبع دقائق على الأكثر .

وأنهت المحادثة على الفور ، فى نفس اللحظة التى انهمرت فيها الأمطار ..

ولقد أدهشه هذا لحظات ، فليس من المألوف فى (مصر) أن تمطر السماء فى فصل الصيف ، ولا أن ينقلب الجوّ بهذه السرعة ..

وشعر ببرودة مفاجئة ، فضمَّ سترته إلى صدره ، ووقف ينتظر ..

ومع انتظاره ، تدفَّق نهر الذكريات مرَّة أخرى فى رأسه ..

تذكَّر أمَّه ، وكلماتها الحانية ..

تذكَّر عبارة (مها) الأخيرة ..

عُدْ يا (حسن) ..

عُدْ كما أنت ..

لا تتغيَّر ..

وبسرعة شريط سينمائيّ ، جرت فى رأسه وجوه أشقائه ..

(أحمد) ..

و (وهبى) ..

و (حنان) ..

وفجأة، تسلَّل ذلك الصوت إلى أذنيه ، ناعمًا كموسيقى عذبة :

ـ أأنت مستر (حسن) ؟..

والتفت إلى مصدر الصوت ..

وانقضت على قلبه صاعقة ..

لقد رآها ..

رأى (چينا) ..

* * *

٤ ـ الصاعقة ..

انهار حبل الذكريات كله دفعة واحدة ..

تلاشى ..

تبخَّر ..

استيقظت مشاعر شتَّى فى أعماقه ..

لم يَعُدْ يذكر أمّه ، ولا أباه ..

لم يَعُدْ يذكر شقيقيه وشقيقته ..

لم يَعُدْ يذكر حتى (مها) ..

كل هذا محته معجزة بشرية ..

فاتنة تحسدها (ڤينوس) إلهة الجمال ، وتغار منها حسناوات العالم أجمع ..

لم يصدِّق عينيه فى البداية ..

تصوَّر أنه يحلم ..

بل إنه قد مات ، وانتقل إلى الجنة ..

لم تكن تلك التى تقف أمامه إنسيَّة بالتأكيد ..

إنها واحدة من الحُور العِين ..

إنها حوريّة ..

بل ملكة الحوريّات ..

لقد خَفَق قلبه فى عُنف ، وهو يتأمّل ذلك الجمال الأخّاذ ..

كانت أمامه فتاة فى أواخر عقدها الثانى ، لها بشرة بيضاء ، مُشْربة بحُمْرة رائعة ، ووجه بيضاوىّ ، يَسْتَدِقُّ عند ذقنها الرقيقة ، يعلُوه تاج من شعر كستنائىّ لامع ، يميل إلى الشقرة ، وينسدل على كتفيها كنهر من خيوط ذهبية حريرية ، وتتطلّع إليه بعينين واسعتين ، فى لون البحر ، عندما يلتقى بالسماء ، وتنعكس فوقه صورة القمر ، فى ليل يخلُو من السحب ، وتسكن فيه كل الأصوات ، فيما عدا نبض القلوب المحبّة ، وأسفل أنفها الدقيق الرقيق فم ، هو تحفة الخالق فيما خلق ، أحمر كثمرة ناضجة ، مستدير ، رقيق ..

ومن خلف أهداب كستنائية طويلة ، تطلّعت إليه ، وبابتسامة هى أعذب ما رأى فى حياته كلها ، سألته مرّة أخرى :

ــ ألست مستر (حسن لطفى) ؟

مضت لحظات من الصمت ، خشى فيها أن تنفرج شفتاه ، أو ينطق بكلمة واحدة ، مشفقًا عليها من صوته الأجشّ ،

خشية أن يؤذى أُذنيها الرقيقتين ، اللتين تتحلّيان بقرطين بسيطين ، على هيئة فراشتين رقيقتين تخجلان من رقّة الأُذنين ، فتنكمشان فى حياء واستكانة ..

ثم استجمع إرادته كلها ، ليقول بحروف إنجليزية مرتجفة :

ــ نعم .. هو أنا .

اتسعت ابتسامتها ، وازدادت جاذبيةً وعذوبة ، وهى تقول :

ــ مرحبًا بك فى (دوفر) .

كانت ترتدى معطفًا جلديًا ، تنزلق فوقه قطرات المطر ، وتحمل مظلة صغيرة شفافة ، وهى تشير إلى سيارة أنيقة ، من طراز رياضى ، مستطردة :

ــ هيّا بنا .. إن والدى ينتظرك .

تبعها إلى السيّارة ، ورآها تتخذ مكانها أمام عجلة القيادة فى حيويّة ، فدار حول السيّارة ، وجلس على المقعد المجاور لها صامتًا ، يتطلّع إلى جمالها الساحر مشدوهًا مبهورًا ، فى حين أدارت هى المحرّك ، وهى تقول :

ــ متى وصلت إلى (إنجلترا) ؟

غمغم مرتبكًا :

ــ هذا الصباح فحسب .

قالت فى حماس :

ـ هذا يَعْنِى أنك تحتاج إلى الرَّاحة .

تمتم فى خجل :

ـ ليس بالضرورة .

ابتسمت ، وهى تقول :

ـ كل إنسان يحتاج إلى الراحة ، بعد يوم كامل من السفر المتواصل .

تنهَّد ، وهو يقول مستسلمًا :

ـ أنت على حقّ .

كان على استعداد لأن يوافقها على كل عبارة تنطق بها ، وهو يملأ عينيه بجمالها الفتَّان ، الذى يندر أن يجد المرء مثيلًا له فى (مصر) ..

بل فى الدنيا كلها ..

لقد شاهد مئات الفتيات ، منذ وصل إلى (إنجلترا) ، ولكنه لم يشاهد من تفُوق هذه الفتاة سحرًا وجمالًا ..

بل لم يجد حتى من تساويها ..

وفجأة ، سألته هى فى بساطة :

ـ لماذا تتطلَّع إلىَّ هكذا ؟

أربكه سؤالها ، الذى ألقته فى بساطة ومباشرة ، فاحمرَّ وجهه خجلًا ، وارتبك وتلعثم ، وتمتم :

ـ إننى .. إننى .....

لم تنتظر جوابه ، وإنما سألته فى اهتمام :

ـ أتجدنى جميلة ؟

وجد نفسه يهتف فى حماس :

ـ بل رائعة .

وخَفَق قلبه فى قوَّة ..

ما كان ينبغى له أن يقول ذلك ..

لقد أدركت الآن أنه يهتم بجمالها ، وسيضايقها أن تتصوَّره يغازلها ..

هذا ما جال بخاطره ..

ولكن الفتاة ابتسمت فى سعادة ، وهتفت :

ـ أوه !! شكرًا لك .

شجَّعه هذا على أن يتمتم :

ـ إنها الحقيقة .

تهلَّلت أساريرها فى مَرَح ، وهى تقول :

ـ شكرًا .. إنك لطيف للغاية .

كانت بسيطة وتلقائية للغاية ، على عكس فتيات (مصر) ،

اللاتى يملن إلى التعقيد والمراوغة ، ويهوين لُعبة القطّ والفأر طِيلة الوقت ، حتى بعد الزواج ..

إنها تختلف عنهن تمامًا ..

كم أسعده أن يلتقى بفتاة مثلها ..

وفى هدوء وثقة ، سألها مبتسمًا :

ــ ألَمْ يخبرك أحد من قبل بذلك ؟

كان يتوقّع منها أن تنفى هذا ، وأن تؤكّد له أنه أوّل من مَدح جمالها ، أو أشار إليه ، إلّا أنه فوجئ بها تقول فى بساطة :

ــ بلَى .. الجميع أخبرونى بذلك .

ضايقه جوابها ، وتلك البساطة التى نطقته بها ، وبدا له أنه يشعر بالغَيْرة من هؤلاء (الجميع) ، فتمتم :

ــ من هؤلاء ؟

هزّت كتفيها فى بساطة ، وهى تقول :

ــ أصدقائى .

سألها فى غَيْرة واضحة :

ــ أفتيات هم أم فتيان ؟

ابتسمت وهى تقول :

ــ النوعان ..

ثم قالت ضاحكة :

ــ إنك لم تسألنى بعد عن اسمى .

أدهشه أنه لم يفعل حقًّا ..

لقد شغله جمالها عن اسمها ..

وفى خجل ، غمغم :

ــ فلنقل إننى أسألك الآن .

أجابت على الفور :

ــ اسمى (چينا) .

بدا له ، من لحظة الصمت التى أعقبت ذلك ، أنها ستكتفى بهذا القول ، إلّا أنها لم تلبث أن تابعت :

ــ فى الكلية يخاطبوننى باسم مِسْ (كين) ، أمّا الأصدقاء فينادوننى (چينى) .. أتعلم ما معنى كلمة (چينى) ؟

ابتسم،وهو يتمتم :

ــ نعم .. إنها تُعنى أنك جنّيّة ، مثل تلك التى تخرج من مصباح (علاء الدين) .

هتفت فى جذَل :

ــ هذا صحيح .. أنت تعرف قصة (علاء الدين) .. أليس كذلك ؟

أجابها فى شَغَف :

ــ بلَى .. إننى أحفظها عن ظهر قلب .

هتفت فى حماس :

ـ ستقصها علىَّ .. أليس كذلك ؟

تمتم فى حنان ، وهو يتفرَّس فى ملامحها الرائعة :

ـ سأفعل حتمًا .

قالت وهى تشير إلى السماء :

ـ انظر .. لقد انقشعت السحب ، وأشرقت الشمس مرَّة أخرى .

غمغم فى دهشة :

ـ عجبًا !!.. كانت تُمطِر منذ لحظات .

ضحكت قائلة :

ـ ما دمت ستقيم بيننا ، فمن الضرورىّ أن تعتاد مُناخ (إنجلترا) المتقلِّب .. إنها دائمًا هكذا ، تغادر منزلك فى جوٍّ صَحْو ، فتنهمر الأمطار فوق رأسك ، وعندما تسرع بفتح مِظَلَّتك ، يعود الجوُّ صَحْوًا ، فإذا ما أغلقتها انهمرت الأمطار على رأسك مرَّة أخرى .

ابتسم قائلًا :

ـ إلى هذا الحدّ ؟

عادت تضحك فى مَرَح ، وهى تقول :

ـ بالتأكيد .

ثم استطردت فى سرعة :

ـ ألَمْ تلحظ أنَّ الجميع هنا يحملون مظلَّاتهم ، حتى عندما يكون الجوُّ صَحْوًا ؟

تمتم مبتسمًا :

ـ لقد لاحظت ذلك .

أطلقت ضحكة عابثة ، ثم قالت فى خُبْث :

ـ لهذا تعرَّفتك على الفور ، فلم تكن تحمل مِظَلَّة .

شاركها ضحكة مَرِحة ، امتزج خلالها صوتاهما ، قبل أن تضغط هى كمَّاحة سيارتها ، قائلة :

ـ لقد وصلنا .

توقَّفت أمام منزل من طابقين ، تحيط به حديقة رائعة غنَّاء ، تحوى العشرات من أحواض الزهور المتنوِّعة ، وتتوسَّطها نافورة أنيقة ، على هيئة تمثال (كيوبيد) إله الحبّ ، وهو يحمل قلبًا كبيرًا ، تتدفَّق منه المياه داخل حَوْض رومانىّ جميل ، وهتف (حسن) مبهورًا :

ـ أهذا منزلك ؟

هزَّت رأسها نفيًا ، وهى تقول :

ـ بل منزل والدى .

سألها فى دهشة ، وهو يغادر السيَّارة خلفها :

— وما الفارق ؟
رفعت حاجبيها ، وهى تبتسم قائلة :
— فارق كبير هنا .
سألها فى دهشة :
— هنا فى (دوفر) .
أجابته فى بساطة :
— بل فى (إنجلترا) .
وفى تلقائية شديدة ، أمسكت يده بكفّها ، قائلة :
— هيّا .. إن أبى ينتظر مقابلتك .
تبعها وهو يرتجف ، وقلبه يخفق كطير صغير ، وملمس كفّها البضّة يُشعِل فى نفسه النيران ..
إنها تختلف ..
تختلف تمامًا عن فتيات (مصر) ..
تختلف كليّة ..
ولم يكد يدلف إلى المنزل ، حتى وجد أُمّها أمامه تبتسم ..
عرف أنها أُمّها على الفور ؛ لأنها كانت نسخة طبق الأصل منها ..
وفى ارتباك حاول أن يجذب يده من كفّها ، خشية أن تغضب أُمّها ، إلا أنّ (چينا) أطبقت على يده بأصابعها ، وهى تقول :

— أُمّاه .. ها هو ذا مستر (حسن) .
لم يَبْدُ على الأُمّ أنها قد لاحظت كفّه فى يد ابنتها ، أو أنّ هذا يَعْنيها كثيرًا ، وهى تبتسم قائلة :
— مرحبًا بك فى (إنجلترا) يا مستر (حسن) .. سترُوق لك الإقامة هنا حتمًا .
تمتم مرتبكًا :
— شكرًا يا سيّدتى .
هتفت (چينا) :
— أُمّاه .. إنه يسافر منذ الصباح الباكر ، وأظنّه جائعًا .
قالت الأم فى حنان :
— سأعِدّ لكم الطعام على الفور .
دفعت (چينا) باب حجرة جانبية ، وهى تقول :
— هذا عظيم .. سنتناوله بعد أن يفرغ من مقابلته مع أبى .
قالت هذا ، وجذبت (حسن) إلى داخل الحجرة ..
وتسمّر (حسن) مشدوهًا ..
كانت الحجرة عبارة عن مكتبة ضخمة ، احتلّت كل الجدران ، واكتظت بآلاف الكتب والمخطوطات ، ويتوسطها مكتب عريق ، جلس خلفه رجل وقور ، أشيب الفَوْدَيْن ، يدخّن غليونًا أثريًّا ، رفع عينيه يتأمّل وجه (حسن) من خلف عدسة منظاره الطبّى ، قبل أن يقول فى هدوء :

ـ مستر (حسن لطفى) .. أليس كذلك ؟
تمتم (حسن) :
ـ هو أنا يا سيِّدى .
ابتسم الرجل ، مغمغمًا :
ـ عظيم .
ثم أشار إلى ابنته ، قائلًا :
ـ اتركينا وحدنا يا (چينى) .
ابتسمت (چينا) ، وهى تقول :
ـ حسنًا .. سأشارك أُمى فى إعداد الطعام .
وأسرعت تنصرف ، و (حسن) يتابعها ببصره مبهُورًا ، حتى قال مستر (كين) فى هدوء :
ـ لقد أخبروك بسبب قدومك إلى هنا يا مستر (حسن) .. أليس كذلك ؟
تمتم (حسن) :
ـ هذا صحيح يا سيِّدى ؟
تراجع (كين) فى مقعده ، وراح يتطلَّع إليه بعض الوقت ، قبل أن يقول فى هدوء شديد :
ـ يبدو أن لغتك الإنجليزية معقولة يا مستر (حسن) ، ولن تستغرق وقتًا طويلًا ، حتى تتحدَّثها على نحو جيِّد .

ثم اعتدل ، ونهض من خلف مكتبه ، مستطردًا :
ـ وهذا يستلزم منك جهدًا كبيرًا ، لتتقن اللغة على نحو يؤهِّلك للتعامل مع المرضى على نحو بسيط ودقيق .. صحيح أنك لن تبلغ أبدًا براعة أىّ بريطانىّ فى نطق لغته ، ولكننا سنسعى لبلوغ أفضل مستوى ممكن .
تمتم (حسن) :
ـ سأبذل أقصى جهدى يا سيِّدى ، ولكن .....
تردَّد لحظات ، فسأله الرجل فى هدوء :
ـ ولكن ماذا يا مستر (حسن) ؟
قال (حسن) فى ارتباك :
ـ أين سأقيم حتى ذلك الحين ؟
أجابه الرجل فى بساطة :
ـ هنا .
تألَّقت عينا (حسن) ، وخفَق قلبه فى قوَّة ..
هذا أفضل مما كان يحلُم به ..
سيقيم معها فى منزل واحد ..
مع الفاتنة الكستنائية الشعر ..
مع (چينا) ..

* * *

٥ ــ قصَّة حبّ ..

حدَّقت (مها) فى صفحات ذلك الكتاب الضخم ، الذى تستذكر منه دروسها ، وراحت تقلِّب تلك الصفحات فى بطء ، دون أن تلتقط عيناها حرفًا واحدًا منها ..

كانت شاردة تمامًا ..

لم تكن أفكارها تتركَّز على معلوماتها الطبِّية ..

أو حتى إلى نفسها ..

كانت تسبح هناك ..

فى (لندن) ..

وكان قلبها يعزف لحن حبّ ناعم ، يتسلَّل [illegible] إلى وجدانها ، فتتراقص له خلاياها ، فى مزيج من الهُيام [illegible]غة والشَّجن ..

لقد مضى أسبوعان كاملان ، منـــذ وصلتها برقيـــة (حسن) ، التى يعلن فيها وصوله إلى (لندن) ، دون أن تتلقَّى منه كلمة واحدة أخرى ..

أسبوعان كاملان لم تدرِ فيهما شيئًا عن أحواله ..

وكان هذا يقتلها ..

إنها تحبه مثلما لم تحب ، ولن تحب ، ولا تتصوَّر أن تحبّ ، من قبلُ ومن بعدُ ..

لقد غاص حبّه فى أعماقها ، واستقرَّ فى كل ذرَّة من كيانها ..

تحبّه ..

تحبّه ..

تحبّه ..

تُرى أيدرك قوّة حبها له ؟!..

تُرى أيحبها بالقدر ذاته ؟..

من المستحيل أن تجيب عن السؤالين بالإيجاب ..

صحيح أنها تشعر بقلبها أنه يحبها ..

صحيح أنه يرتجف مثلها للمساتهما العفويَّة ، ويذوب لحديثهما الرقيق ، إلَّا أنه لم يصرِّح لها أبدًا بحبِّه لها ..

لم يشاركها أبدًا أفكاره ..

إنه دَوْمًا صامت مُنطوٍ ..

حتى معها ..

لم ينتزعه حتى الحبّ من قوقعته ..

كان يحيا وكأنما راق له أن يظلّ غريبًا ..
وحيدًا فى مجتمع مزدحم ..
ولقد بذلت أقصى جهدها ، لتنتزعه من ذلك ..
وفشلت ..
وعلى الرغم من فشلها ، طِيلة عامين من تعارفهما ، فى حثّه على الخروج من سجنه الاختيارىّ ، والبَوْح لها بمكنون قلبه ، إلّا أنها ظلت تحبه بالقدر نفسه ..
بل لقد تضاعف حبها له ..
ولكنها أيضًا أخفت عنه سرَّها ..
أخفت عنه أنها تحبّه منذ عام كامل ، قبل أن تتحدّث إليه ..
لقد بدأ الأمر بتلك العبارة ، التى أطلقتها عليه مجموعتها ..
عبارة (غريب الدار) ..
كانت فى البداية تضحك لها ..
ثم بدأت تتأمّلها ..
وتتأمّله ..
وفجأة ، وجدت نفسها غارقة فى حبّه ..
لقد أدركت أنه — بحسب رأيها — منطو ؛ لأنه أذكى من كل مَنْ حوله ، وأكثر منهم رِقّة وشاعِريّة .. وتهذيبًا ..
لقد شعرت بذلك فى كل لمساته ، وتصرُّفاته ، وأسلوبه ..

وعبثًا حاولت — طوال عام كامل — أن تلفت انتباهه إليها ..
استخدمت كل وسائل المصريّات ..
تعمّدت أن تسير أمامه ، وتتحدّث فى صوت مرتفع ، أو تترك كتبها تسقط عند قدميه ..
ولكنها أبدًا لم تلفت انتباهه إليها ..
صحيح أنه هبَّ ذات مرّة ، يعاونها فى التقاط كتبها ، ولكنه فعل دون أن يرفع عينيه إليها بنظرة واحدة ..
وهنا ألقت خلفها تلك المحاولات الصّبيانيّة ..
وبدأت معه الأسلوب المباشر ..
ونجحت ..
كانت تشعر بخجل شديد وهى تفعل ذلك ، إلّا أن أسلوبه وبساطته لم يلبثا أن انتزعا الخجل من أعماقها ، وزرعا بدلًا منه حديقة من الارتياح والثقة ، جعلا بساطتها طبيعية ، ومدّا بينهما جسور التفاهم والفهم لأوّل مرّة ..
ثم كان خلافهما الأوّل ، بعد عامين ..
لم يختلفا إلّا حينما برزت فى رأسه فكرة السفر ..
كانت تعلم أنه عنيد ، وأنه لن يتنازل عن سعيه وراء النجاح والتفوّق أبدًا ، ولكنها كانت تخشى أن يسافر ، وأن يلتقى بفتاة أخرى هناك ..

لم تكن تخشى ذلك لضعف ثقتها فى نفسها ، وإنما لمعرفتها بجانب من شخصية (حسن) ..
ذلك الجانب المحبّ للبساطة والجمال ..
كانت تعلم أنه سيجد الفتيات هناك أكثر بساطة وجمالًا .. وأكثر تحرُّرًا ..
وكانت تخشى أن يُبهره ذلك ..
وأن يستميله ..
كانت وكأنما يتنبأ قلبها بالمستقبل ..
وعندما لم يرسل إليها أيّة خطابات ، طِيلة الأسبوعين الماضيين ، وقَر هذا الاعتقاد فى قلبها ، وأرجف نفسها ..
وراحت تنتظر فى أمل خطابًا منه ..
أو عنوانًا ترسل خطاباتها إليه ..
وطال انتظارها ..
طال كثيرًا ..

* * *

زهرة داعبت أنف (حسن) ..
زهرة عطرة رقيقة ، لامست أنفه فى رفق ..
وأيقظته ..
أزاح الزّهرة بأنامله ، وفتح عينيه فى بطء ، يتطلّع إلى ما أمامه ..

وارتجف جسده كله ..
هل يحلُم ؟..
هل انتقل إلى الجنّة ؟!..
كلّا ..
هذا الجمال الساحر الفتّان يوجد فى الدنيا أيضًا ..
إنها (چينا) ..
اختلج قلبه فجأة فى عُنف .
(چينا) ؟!!..
فى حجرة نومه ؟!..
هبّ جالسًا على الفراش ، وهو يهتف فى دهشة واستنكار :
ــ (چينا) ؟!.. ماذا تفعلين هنا ؟
ابتسمت أعذب وأجمل ابتسامة رآها فى حياته ، وهى تقول :
ــ أردت أن أُوقظك بنفسى .
كانت ترتدى ثوبًا ورديًا ، بدا متناسقًا مع لون بشرتها ، وذلك اللون الذى صبغت به شفتيها الجميلتين ، وتركت شعرها الكستنائى المائل إلى الشقرة ينسدل حُرًّا على كتفيها ، وهى تمسك بزهرة حمراء ، صنعت مع بشرتها وثوبها وشفتيها لوحة رائعة ..

وبهره ذلك لحظات ، ثم لم يلبث أن تساءل مرّة أخرى عن سرّ جُرأتها ، فى اقتحام حجرته ، وإيقاظه ..

حتى شقيقته لا تفعل ذلك فى (مصر) ..

وعاد يسألها فى توتُّر :

ــ كيف دخلت إلى حجرتى يا (چينا) ؟

ضحكت وهى تقول :

ــ لقد دفعت الباب .

خُيّل إليه أنها لم تفهم مغزى سؤاله ، فعاد يكرِّر فى توتُّر :

ــ وماذا عن أُمّك ؟

سألته فى دهشة :

ــ ماذا عنها ؟

سأل فى همس مضطرب :

ــ هل تعلم أنك هنا ؟

أتاه الجواب على لسان الأُمّ ، التى أطلّت برأسها داخل الحجرة ، وابتسمت ابتسامة عريضة ، وهى تقول :

ــ هيَّا يا (چينى) .. هيَّا يا (حسن) .. لقد أعددت طعام الإفطار .

تطلَّع إلى الأُمّ فى دهشة ، إلَّا أن تطلُّعه إليها لم يدم طويلًا ، لقد نطقت عبارتها واختفت خارج الحجرة ، فى حين قالت (چينا) فى مَرَح :

ــ هيَّا .. أنت تعلم أن والدى يكره الانتظار .

ثم أسرعت تغادر الحجرة فى رشاقة ومَرَح ..

وغادر هو فراشه فى حَيْرة ..

يا لهُ من مجتمع !!..

كل شىء فيه يتم فى بساطة متناهية !!..

لو أن (چينا) هذه مصريَّة ، ورأتها أمّها داخل حجرة شاب عزب ، لانهالت عليها ضربًا ، حتى ولو كانا يستذكران دروسهما ..

أمَّا هنا ، فالمنطق والعقل يحكمان كل شىء ..

إنه مجتمعه المفضَّل ..

حتى وهو يرتدى ملابسه ، للهبوط وتناول الإفطار ، وجد فى ذلك متعة ، ففى منزله ، لم يكن هناك ضرر فى أن يتناول إفطاره ، وهو يرتدى منامته ..

بل إنه عادةً ما يفعل ذلك ..

أمَّا هنا ، فكل شىء يتم فى نظام وتنسيق ..

وعندما هبط إلى حيث مائدة الطعام ، كان وجهه يحمل ابتسامة عريضة ، وهو يقول لمعلّمه فى لهجة مهذّبة :

ــ صباح الخير يا مستر (كين) .

ابتسم الرجل ، وهو يقول :

— صباح الخير يا مستر (حسن) .. من الواضح أن لغتك الإنجليزية تتحسن بسرعة .

قال فى احترام :

— الفضل يعود إليك يا سيِّدى .

أومأ الرجل برأسه فى زهوٍ ، ثم قال فى هدوء :

— وإلى (چينى) .

اتسعت عينا (حسن) ، وهو يقول فى دهشة :

— (چينى) ؟!..

أومأ الرجل برأسه إيجابًا مرَّة أخرى ، وقال :

— بالطبع .. أفضل وسيلة لتعلُّم لغة جديدة ، حتى أن تحدَّث بها المرء مع أحد أبنائها ، وأنت و (چينى) تتحدثان كثيرًا ، وهذا يحسِّن لغتك بالطبع .

غمغم (حسن) مرتبكًا :

— بالطبع يا سيِّدى .

أشار إليه الرجل ، قائلًا :

— حسنًا .. اجلس وتناول طعام إفطارك .

جلس (حسن) فى هدوء، وراح الجميع يتناولون طعام الإفطار فى صمت تام ، على عكس ما كان يفعله فى (مصر) ، حيث كانت فترة الإفطار عبارة عن حوار متصل ، قد تضاف

إليه بعض النكات ، أو يتحوَّل إلى مشاجرة ، حسبما يؤدى إليه الحوار ..

وبعد الإفطار ، تطلَّع مستر (كين) إلى ساعته ، وقال :

— هيَّا .. ستوصِّلاننى أنت و (چينى) إلى الكلية بالسيَّارة ، وسأعود وحدى .

سأله (حسن) فى حَيْرة :

— لماذا يا سيِّدى ؟

أجابه الرجل ، وهو يُشعل غليونه فى وقار :

— لأنك ستذهب مع (چينى) إلى (لندن) ، فنحن نحتاج إلى بعض المشتريات من هناك ، وستجددان لى اشتراكات بعض المجلَّات المتخصِّصة .

اختلج قلبه فى شِدَّة ..

سيقضى يومًا كاملًا مع (چينا) ..

مع جمالها الفتَّان ..

ونبض قلبه فى سعادة جمَّة ، تحوَّلت إلى فرحة غامرة ، والسيَّارة تنطلق بهما ، فى طريقها إلى (لندن) ، بعد أن أوصلا الأب إلى كليته ..

كان يحتضن (چينا) بعينيه ، ويضمها إلى قلبه ، وهى تقود السيَّارة فى صمت، حتى ضحكت فى مَرَح ، وهى تقول:

ـ ألا تملّ التطلّع إلىَّ أبدًا ؟
تمتم فى هُيام :
ـ مطلقًا .
رأى ابتسامتها الواسعة ، التى تحمل فرحة حقيقية ، وهى تسأله :
ـ قُلْ لى يا (حسن) : كم يبلغ عمرك ؟
تمتم فى خُفُوت :
ـ إننى فى السادسة والعشرين من عمرى .
هتفت ضاحكة :
ـ يا إلهى !! إنك عجوز للغاية .
ضحك بدَوْره ، قائلًا :
ـ ليس إلى هذا الحدّ .
قالت فى مَرَح :
ـ بالنسبة لى على الأقل ، فأنا فى التاسعة عشرة من عمرى .
تمتم :
ـ أعلم ذلك .
سألته فى شَغَف :
ـ هل لك صديقة ؟.. أعْنِى هل أحببت من قبل ؟

صمت لحظات ، وقد أدهشه سؤالها ، وراح يتأمّل ملامحها الفاتنة ، وهو يتساءل فى أعماقه ..
هل أحبَّ حقًّا من قبل ؟..
أكان ما بينه وبين (مها) حبًا ، أم أنه انجذاب منطقىّ عقلانىّ ؟!..
سبَّب له التساؤل بعض الحَيْرة ، فقال :
ـ ليس بالمعنى المعروف .
ضحكت ، وهى تقول :
ـ ما الذى يَعْنِيه ذلك ؟.. فى الحب يكون الجواب دَوْمًا بنعم أو لا . إنه أمر محدود للغاية .
تردَّد لحظة ، وقال :
ـ هل يضايقك أن أجيب بنعم ؟
هزّت كتفيها ، وهى تقول :
ـ كلًّا .. كان سيدهشنى أن تجيب بـ(لا) .. فمن المستحيل أن تبلغ السادسة والعشرين من عمرك ، دون أن تحب ، ولو مرَّة واحدة على الأقل .
تردَّد لحظة أخرى ، ثم سألها :
ـ وماذا عنك ؟
ابتسمت ، وهى تقول :

ــ أتقصد أن تلقى علىَّ السؤال ذاته ؟

أجابها فى اهتمام مشوب بالقلق :

ــ نعم .. هل أحببت من قبل ؟

أجابته فى بساطة أدهشته :

ــ نعم .. مرَّة أو مرَّتين .

هتف فى استنكار :

ــ ما معنى هذا الجواب ؟.. ألا تذكرين كم مرَّة أحببتِ ؟

هزَّت كتفيها مرَّة أخرى ، وقالت :

ــ لست أقصد ذلك ، وإنما قصدت أن ما شعرت به فى المرَّتين يصعب الجزم بأنه حبّ ، فقد كنت فى المرَّة الأولى فى الخامسة عشرة فحسب .

قال فى حِدَّة :

ــ الحبُ ليس أمرًا هيِّنا إلى هذا الحدّ .

ابتسمت ، وهى تقول :

ــ على العكس .. إنه ليس أمرًا معقَّدا .. الحب عاطفة تنبع من القلب ، لا شأن للعقل والمنطق بها ، وهى عاطفة تلقائية بسيطة ، لا يمكن تقنينها ، أو وضع الضوابط لها .

قال فى عصبيَّة :

ــ مَنْ قال هذا ؟.. حتى الحب له ضوابطه ، فأنا لا أحبّ زوجة رجل آخر مثلًا .

سألته فى اهتمام :

ــ لماذا ؟

قال فى حِدَّة :

ــ لأنها زوجة رجل آخر .

هزَّت رأسها نفيًا ، وهى تبتسم قائلة :

ــ أخطأت التعبير إذن ، فأنت قد تحبّها ؛ لأنك لا تملك أن تفعل أو لا تفعل ، ولكنك لن تصرِّح لها بحبك ، وهذا ما تملكه .

كان حديثها منطقيًا ، ممَّا جعل وجهه يحتقن ، وهو يتمتم :

ــ نعم .. أنت على حقّ .

ثم عاد يسألها فى حِدَّة :

ــ ولكن هذا لا يَغْنِى عدم القدرة على التحديد .. أمرَّتين أحببتِ أم مرَّة ؟

سألته ضاحكة :

ــ ولماذا تحتدُّ هكذا ؟

هتف فى عصبيَّة :

ــ هذا شأنى .

ضغطت كمَّاحة السيَّارة فجأة ، وانحرفت بها ، لتوقفها على جانب الطريق ، وتلتفت إليه ، هاتفة :

ـ (حسن) .. هل تغار ؟!
فاجأه سؤالها وأدهشه ، فارتبك مغمغمًا :
ـ إننى .. فى الواقع ..
أمسكت كفَّه فى حرارة ، وهى تقول :
ـ نسيت أن أخبرك أننى أحب الآن ..
هتف بأنفاس لاهثة منفعلة :
ـ تحبِّين ؟
تطلَّعت بعينيها الزَّرقاوين إلى عينيه السَّوداوين ، وهى تقول فى حرارة :
ـ نعم يا (حسن) .. أحبّك .
واختلج قلبه ..
وذاب ..

* * *



٦ ـ طائران ..

وصلا إلى (لندن) كطائريْن ، يحلِّقان فى سماء الحبّ .. وأنهما كل مايبتغيان فى ساعة واحدة ، دون أن تتفارق أصابعهما لحظة ، ثم قالت (چينا) فى لهفة :
ـ ما رأيك ؟. لقد اتبعنا كل ما طلبته أُمّى ، وجدَّدنا كل اشتراكات مجلَّات أبى الغريبة .. فلنحصل على جولة داخل (لندن) .. هل زرتها من قبل ؟
أجابها هائمًا :
ـ ساعات معدودة ، يوم وصولى فحسب .
هتفت فى حماس :
ـ ساعات معدودة ؟!.. (لندن) تحتاج إلى سنوات لرؤيتها كاملة ..
من قصر (باكنجهام) إلى متحف مدام (توسو) .. إنها تاريخ .
قال مبتسمًا :

ـــ لا أظننا سنجد هذه السنوات .

هتفت :

ـــ رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة .. وسنبدأ هذه الخطوة الآن .

لم يكن يهتم كثيرًا بما سيشاهدانه ..

كان كل ما يهمُّه هو أن أصابعهما وأكُفَّهما ستبقى متشابكة لأطول وقت ممكن ..

إن أصابعه لم تعانق أصابع (مها) أبدًا ..

لقد تصافحا فقط ..

مرَّة واحدة ضغط كفَّها ، فاحمرَّ وجهها خجلًا ..

وكان ذلك يوم وداعهما ..

إنها تختلف كثيرًا عن (جينا) ..

صحيح أنها بسيطة ، بالنسبة للفتيات المصريَّات ، ولكنها شديدة التعقيد ، بالمقارنة بـ(جينا) ..

(جينا) هى البساطة مجسَّمة ..

لقد استغرقت علاقته بـ(مها) عامين ، لم تُشِرْ فيهما (مها) مرَّة واحدة إلى أنها تحبُّه ..

أمَّا (جينا) ، فقد قالتها بكل صراحة ، بعد أسبوعين فقط ..

فارق رهيب بين الفتاتين ..

فارق تربَوىّ وحضارىّ واجتماعىّ ..

لقد قضى مع (جينا) خمس ساعات كاملة ، يجُوبان (لندن) العتيقة العريقة ، دون أن تتفارق أصابعهما لحظة ، حتى غابت الشمس ..

وهنا فقط شعر بالقلق ، وقال :

ـــ (جينى) .. ألَمْ يَحِنْ وقت العودة بعدُ ؟.. إن الرحلة بالسيَّارة تستغرق ثلاث ساعات على الأقل .

تطلَّعت إليه بعينيها الواسعتين ، وقالت :

ـــ يمكننا أن نؤجِّل ذلك إلى الغد .

حدَّق فى وجهها بدهشة ، وقال :

ـــ ماذا تعْنين ؟

قالت فى خُفُوت :

ـــ أعنى أنه يمكننا أن نقضى الليل هنا ، ونعود فى الصباح .

أفزعه ذلك الخاطر ، الذى دار بذهنه ، عن معنى عبارتها ، إلَّا أنه لم يلبث أن نفضه عن ذهنه ، وأكَّد لنفسه أنها تتحدَّث ببساطتها المعهودة ، فقال :

ـــ لن يرُوق هذا لوالديك يا (جينى) .

عقدت حاجبيها ، وهى تقول فى حِدَّة :

ـ ليس لوالدىَّ شأن بذلك .. إنها حياتى الخاصَّة .
هتف فى دهشة :
ـ ولكنَّهما والداك .
ضربت قدمها بالأرض فى غضب ، وهى تهتف :
ـ هذا لا يمنحهما حقَّ التحكُّمُ فى حياتى .
قال فى حَيْرة :
ـ ما الذى تمنحهما أبُوَّتهما لك من حقوق إذن ؟
هتفت مُخْتَنِقَة :
ـ لا شىء .. إنها تمنحنى أنا فقط كل الحقوق ، فهما أنجبانى ، دون أن يسألانى رأيى فى ذلك ؛ لذا فهما ملزمان بمنحى كل ما يمكنهما ، وكل ما أطلبه ، أمَّا أنا فليس من حقِّهما علىَّ شىء .. أى شىء .
راح يتأمَّلها فى دهشة ، وهو يتساءل فى حَيْرة عن انقلابها المفاجئ هذا ..
لقد ذهبت كل رقَّتها ، وبدت له خشنة قاسية ..
وعقد حاجبيه بدوْره ، وهو يقول :
ـ (چينى) .. هذا الأسلوب لا يُروق لى .
لوَّحت بذراعها فى حِدَّة ، هاتفة :
ـ هذا شأنك .

قال فى غضب :
ـ حسنًا .. سنعود .
صاحت مُخْتَنِقَة :
ـ فلْيكن .
وأدارت محرِّك سيارتها فى عصبيَّة ، وانطلقت بها فى طريق العَوْدة ..
وطوال الطريق لم تتبادل معه حرفًا واحدًا ، حتى عندما غمغم فى توتُّر :
ـ (چينى) .. إننى لم أقصد .....
بتر عبارته ، عندما رآها تشيح عنه بوجهها ، وتضغط شفتيها بأسنانها فى غضب ، ولاحظ أنها قد زادت من سرعة السيارة فى عصبيَّة ، فلزم الصمت تمامًا ، حتى توقَّفت السيَّارة أمام منزل مستر (كين) فى (دوڤر) ، فغمغم فى توتُّر :
ـ لقد وصلنا فى أقل من ثلاث ساعات ، و .....
لم تترك له الفرصة لإتمام عبارته ، بل قفزت خارج السيَّارة ، وأغلقت بابها خلفها فى عُنْف ، وتركته غارقًا فى عرقه وارتباكه ، حتى أنه لم يجرؤ على مغادرة السيَّارة إلَّا بعد ثلاث دقائق كاملة ، وتوجَّه إلى المنزل بخُطُوات مرتجفة ، واستقبلته أُمّ (چينا) داخله ، وهى تسأله فى قلق :

ـ ماذا حدث ؟.. ما الذى أغضبها هكذا ؟

ارتبك وتلعثم ، وهو يغمغم :

ـ سيِّدتى .. أُقسم لك إننى لست .....

قاطعته ، وهى تربِّت على كتفه فى حنان :

ـ لم يتَّهمك أحد بذلك يا (حسن) .

وزفرت فى قوَّة ، قبل أن تضيف :

ـ هكذا هى دومًا .

تضاعف ارتباكه ، وهو يغمغم :

ـ إننى لم .....

قاطعته مرَّة أخرى :

ـ لا عليك .. اذهب إلى (كين) .. إنه ينتظرك فى مكتبه منذ ساعة .

تصبَّب عرق بارد على وجهه ، وهو يطرق باب مستر (كين) ، وهبط قلبه بين قدميه ، عندما سمع صوته الصارم يقول :

ـ ادخل .

دفع الباب فى توتُّر ، ورأى مستر (كين) يجلس خلف مكتبه ، ويتطلَّع إليه فى صرامة ، من خلف عويناته ، فغمغم فى ارتباك :

ـ معذرة يا سيِّدى .. إننى .....

قاطعه (كين) فى حِدَّة :

ـ إنك لم تأتِ فى موعد درسك يا مستر (حسن) .

قال (حسن) فى توتُّر بالغ :

ـ لقد أردت أن .....

قاطعه فى صرامة :

ـ الرجل الجادّ يحافظ على مواعيده دوْمًا يا مستر (حسن) .

غمغم (حسن) :

ـ إنها (چينى) .. لقد .....

ضرب (كين) سطح مكتبه بقبضته فى عنف ، وهو يهتف :

ـ لا شأن لـ (چينى) بعملك يا مستر (حسن) .. إنك هنا لتتعلَّم ، لا لتمضى يومك فى نزهات سخيفة .

أطرق (حسن) بوجهه فى حياء ، وهو يغمغم :

ـ إننى أعتذر .

لوَّح (كين) بكفِّه ، هاتفًا :

ـ وأنا أرفض هذا الاعتذار .

حدَّق فى وجهه بدهشة ، وقال فى توتُّر :

ـ وماذا ينبغى أن أفعل يا سيِّدى ؟

صاح الرجل فى صرامة :
ـ أن تضاعف ساعات الدروس غدًا .
هتف فى دهشة :
ـ فقط ؟!..
قال الرجل فى حِدَّة :
ـ هذا هو الاعتذار العمليّ .
تنفَّس (حسن) الصُعَداء ، ولم يصدِّق أن الأمر قد انتهى عند هذا الحدّ ، فقال فى لهفة :
ـ كما تأمر ياسيِّدى .
وتردَّد لحظة ، ثم أضاف :
ـ وماذا عن اليوم ؟
لوَّح الرجل بكفِّه ، قائلًا فى لهجة استعاد خلالها هدوءه :
ـ لا درس اليوم .
مرَّة أخرى تنفَّس (حسن) الصُعَداء ، وغمغم :
ـ حسنًا ياسيِّدى .. كما تأمر .
وأسرع ينصرف من حجرة مكتب (كين) ، واستقبلته زوجة هذا الأخير بضحكة خافتة ، وهى تقول :
ـ ماذا فعل بك ؟
أجابها فى لهفة :

ـ لا شىء .. أين (چينى) ؟
قالت وهى تغمز بعينيها فى خُبث ، وتربِّت على كتفه :
ـ فى حجرتها ..
تردَّد ، وتصاعدت حُمرة الخجل إلى وجنتيه ، فأضافت مبتسمة :
ـ لا تذهب إليها .
غمغم فى دهشة :
ـ ماذا ياسيِّدتى ؟!..
اتسعت ابتسامتها ، وهى تقول :
ـ إننى أنصحك ، فأنا أعرف ابنتى جيِّدًا ، لو أنك ذهبت تسترضيها فستعمِّد إذلالك ، وتنهرك فى عُنف ، أمّا لو تجاهلتها .....
لم تتم عبارتها ، واكتفت بضحكة قصيرة ، فغمغم فى خجل :
ـ كما ترَيْن ياسيِّدتى .
ربَّتت على كتفه مرَّة أخرى ، وقالت :
ـ استمع إلى نصيحة أمّ إنجليزية يا (حسن) ، ما دمت هنا فى (إنجلترا) .
ابتسم فى شُحُوب ، وهو يغمغم :

ـــ صدقتِ يا سيِّدتى .

صَعِدَ إلى الطابَقِ الثانى ، حيث حجرات النوم ، وتوقَّف لحظة أمام حجرة (چينا) فى تردُّد ، ثم واصل طريقه إلى حجرته ..

لقد ضايقه حقًّا ما أخبرته به والدة (چينا) ..

ضايقه مرَّتين ..

مرَّة لأنه لم يألف أبدًا ، أن ترشده الأم إلى موطن ضعف ابنتها ..

ومرَّة لأنه كشف أن أسلوب المراوغة لا يقتصر على المصريَّات ..

كل نساء العالم تستهويهن المُرَاوَغات ..

المرأة هى المرأة ..

فى كل العصور والبلدان ..

من أقصى الأرض إلى أقصاها ..

ودفعه هذا إلى أن يتذكَّر (مها) ..

تذكَّر جمالها الهادئ ، وابتسامتها الرقيقة ..

تذكَّر حنانها وحبها ..

صحيح أنها تختلف كثيرًا عن (چينا) ..

الأخيرة أجمل منها كثيرًا ..

ولكن (مها) أكثر رقَّة ..

صحيح أنها لم تعترف له أبدًا بحبِّها ، ولكنها فى هذا لم تخالف طبيعة كل المصريَّات ..

ولا طبيعة الخجل ..

لا ريب أنها قد خجلت أن تعترف له بذلك ..

أو أنها لا تحبه كما ينبغى ..

فجأة ، نسِىَ (چينا) ، وراح يسبح فى ذكرياته مع (مها) ..

راح يستعيد كل لمحاتها وسكناتها ..

استعاد فى ذهنه ابتسامتها وضحكتها ، ورقَّتها ..

وشعر بمرارة دفينة ؛ لأنه لم يراسلها طوال الأسبوعين الماضيين ..

لم يبلغها حتى عنوانه ..

وبمزيج من الأسف ، والشعور بتأنيب الضمير ، غادر فراشه ، وجلس إلى مكتبه الصغير ، والتقط ورقة وقلمًا ..

كان يشعر برغبة عارمة فى أن يتحدَّث إلى (مها) ، أو يكتب إليها ..

وحارَ طويلًا ، قبل أن يبدأ الخطاب ..

لم يدرِ كيف يخاطبها ..

أبلقب (عزيزتى) يدعوها ، أم (صديقتى) .. أم (حبيبتى) ؟!..

إنه لم يرسل إليها أيّة خطابات من قبل ..

لم يستخدم معها أبدًا هذه الوسيلة فى الاتصال ..

كانت علاقتهما تقتصر على مقابلاتهما فى الكلية ، ومحادثة أو محادثتين هاتفيتين ، لم يزد حديثهما فيهما على دقيقتين على الأكثر ..

وفى تردُّد ، كتب : « حبيبتى (مها) .. » ..

ثم توقَّف ..

ماذا لو وقع الخطاب فى يد أمّها أو أبيها ؟..

تُرى هل يطالعان خطاباتها ؟..

لا يمكنه أن يَجْزِمَ بصِحَّة هذا من عدمه ، فى مجتمع كـ(مصر) ..

لو أنه هنا ، لباتَ واثقًا من أن أحدًا لا يجرؤ على فتح خطابات (چينا) ، ولا حتى على لمسها ..

المناخ هنا يختلف كثيرًا ..

كل شىء يختلف ..

وتنهَّد فى عمق ، وهو يكتب ..

« افتقدتك كثيرًا .. أنا هنا فى مجتمع مختلف .. لم أعُد أشعر كالسابق أننى غريب .. كل شىء هنا يتَّفق مع شخصيتى وميولى .. كل شىء منظَّم دقيق .. كل الأمور تتبع المنطق والعقل .. هذا هو مجتمعى الحقيقىّ .. » ..

توقَّف عن الكتابة دفعة واحدة ، عندما تناهى إلى مسامعه صوت طَرَقات خافتة على باب حجرته ، فقال فى توتُّر :

ــ مَنْ ؟!..

أتاه صوت (چينا) ، وهى تقول فى توتُّر مُمَاثِل :

ــ إنه أنا .

بُهِتَ لسماع صوتها وعقد حاجبيه فى شِدَّة ، وهو يقول فى اضطراب :

ــ (چينى) ؟!.. ماذا تريدين ؟

قالت فى توتُّر :

ــ افتح أوّلًا .

ازدرد لُعابه فى صعوبة ، وهو يقول :

ــ الباب مفتوح .

دفعت الباب ، ودلفت إلى الداخل كملاك فى غلالة زرقاء ..

وتطلَّع إليها مَبهورًا ..

كانت فاتنة ، بشلّال الذهب فوق رأسها ، ومنامتها الرقيقة الزرقاء ، وصوتها الهامس ، وهى تقول :

ـ إننى أعتذر ..

ابتسم فى ارتياح وسعادة ، وهو يقول :

ـ لا عليْكِ ..

لحظتها نسِىَ كل ما سبَّبته له من آلام ..

نسِىَ كل شىء .

حتى (مها) ..

وعاد هو و (چينا) طائرين فى السماء ..

سماء الحبّ ..

* * *



٧ ـ اللّقــاء ..

« هيه .. أين أنت ؟.. » ..

قالتها صديقتها (سلوى) ضاحكة ، فانتفضت (مها) من شرودها ، والتفتت إليها هاتفة فى جَزَع :

ـ ماذا هناك ؟

تطلّعت إليها (سلوى) فى إشفاق ، وهى تغمغم :

ـ سألتك أين أنت ؟

اغْرَوْرَقت عيناها بالدموع ، ولوّحت بكفّها بلا هدف ، قائلة :

ـ هناك .

كانت كلمة مُبهمة ، إلّا أن (سلوى) أدركت مغزاها على الفور ، ربما لمتانة وعمق الصداقة بينها وبين (مها) ، فاقتربت منها ، وربّتت على كتفها فى حنان ، قائلة :

ـ ألم يرسل أيّة خطابات حتى الآن ؟

هزّت (مها) رأسها نفيًا ، وهى تقول فى حزن ومرارة :

ـ أبدًا .. كما لو أنه قد نسينى تمامًا .. إننى لا أعرف حتى عنوانه هناك .

تنهَّدت (سلوى) ، وهى تقول :

ـ هل أرسل لأمّه ؟

أجابتها باكية :

ـ كلَّا .. لم يفعل ، والمسكينة تكاد تُجنّ جزعًا ولَوْعة .. لقد جازفت واتصلت بها ، أسألها عن خطابات (حسن) ، فوجدتها تكاد تنهار خوفًا وقلَقًا .

تمتمت (سلوى) فى حَيْرة :

ـ ماذا أصابه إذن ؟!

هتفت (مها) :

ـ لست أدرى .. إننى أكاد أُجَنُّ يا (سلوى) .

تردَّدت (سلوى) لحظات ، وهى تقول :

ـ ماذا لو أنه ..... ؟

بترت عبارتها بغتة ، على نحو التهبت له نفس (مها) ، فسألتها فى توتُّر :

ـ لو ماذا ؟

ارتبكت (سلوى) ، وهى تقول :

ـ إنه مجرَّد خاطر بالطبع .

سألتها (مها) فى حِدَّة :

ـ أى خاطر ؟

تردَّدت (سلوى) مرَّة أخرى ، ثم لم تلبث أن حسمت أمرها ، واندفعت تقول :

ـ ماذا لو أنه قد ارتبط بأخرى هناك ؟

انقبض قلب (مها) فى قوّة ..

كان هذا بالذات هو الذى يقلقها ، ويؤرِّقها للغاية ..

كان هذا ما تخشاه ..

أن يكون (حسن) قد نسيها هناك ..

أن يكون قد هامَ بأخرى ..

هذا الخاطر يراودها منذ رحيله ..

يهاجمها كالكوابيس فى منامها ..

يؤرِّقها فى يقظتها ..

يعذِّبها ..

يقتلها ..

وطول غيابه يجعل هذا الخاطر أقرب إلى الحقيقة ..

الحقيقة المُرَّة المخيفة ..

وعلى الرغم من شعورها هذا ، هتفت :

ـ مستحيل !!.. مستحيل أن يفعل (حسن) هذا !!

سألتها (سلوى) فى إصرار :

ـ لماذا هو مستحيل ؟!.. أليس شابًا عاديًا ؟

هتفت (مها) :

ـ لا ، لا .. (حسن) ليس عاديًا .. إنه يختلف .

قالت (سلوى) فى لهجة تحمل طابعًا ساخرًا :

ـ أتقصدين أنه (غريب الدار) ؟

قالت فى حِدَّة :

ـ بل أقصد أنه يختلف حقًا .. (حسن) شابّ رقيق الحسّ ، مُرْهف المشاعر .

قالت (سلوى) فى عِناد :

ـ هذا يساعد على وقوعه فى حبائل أخرى ، لا العكس .

انقبض قلب (مها) مرّة أخرى ، وهى تقول :

ـ خطأ .

ولكن صوتها كان يحاربها ..

قالت كلمة (خطأ) ، فى صوت مرتجف متخاذل ، جعل الكلمة أشبه بـ(أجَل) ..

قالتها وهى ترتعش خوفًا ، مِمَّا شجَّع (سلوى) على أن تستطرد :

ـ صدّقينى .. هؤلاء الذين يتمتعون بحسّ مُرْهَف ، يكونون دائمًا أضعف من غيرهم ، فى الأمور العاطفية بالذات ؛ لأن حسَّهم المُرْهَف ، ومشاعرهم الرقيقة ، تحتاج دَوْمًا إلى وقود يُذْكِيهَا ، وهذا الوقود هو العواطف الجيَّاشة ، والحزن الذى يسعَوْن إليه فيها ، وخاصّة فى الغُرْبَة .

تمتمت (مها) فى هَلَع :

ـ لقد كان (حسن) دائمًا غريبًا مُنطوِيًا ..

هزّت (سلوى) رأسها نفيًا ، وقالت :

ـ الغُربة فى الوطن تختلف عن الغُربة خارجه ، ففى الأولى تكون الغُربة فى أعماق الشخص فحسب ، وتخفِّف من وطأتها ـ دون أن يدرى ـ مشاعر أُلْفَةِ المجتمع والناس ، أمّا فى الثانية ، فيجد المرء نفسه مُنْعَزِلًا عن كل ما يمتُّ له بِصِلَة ، حتى عاداته وتقاليده ؛ لذا فحاجته للعواطف تشتدّ ، ويكون من السهل أن ......

قاطعتها (مها) فى هَلَع :

ـ كَفَى .

ثم أمسكت صدرها بقبضتها ، وكأنها تحاول إيقاف خفقان قلبها العنيف ، وهى تقول :

ــ لا يا (سلوى) .. لا .. لن أصدّق هذا عن (حسن) أبدًا .. أبدًا .. وبين ضلوعها ، راح قلبها يهتف مع خفقاته :

ــ عُدْ يا (حسن) .. عُدْ كما أنت .. عُدْ ..

* * *

أيامًا سعيدة قضاها (حسن) فى (دوفر) ..

أيام اختلط فيها الحب بالعمل ..

كان يحلّق فى سماء الحب طِيلة النهار ، ثم يهبط إلى ساحة العلم فى المساء ، بين يدى مستر (كين) ..

ابتسامة (چينا) كانت تمحو عنه عناء البقاء مع والدها ..

كلمات حبها تنتشله من نهر الغُرْبة ..

وطوال شهر كامل ، اقتصرت علاقتهما على همسات الحب ، وتشابك الأيدى والأصابع ..

كان يعلم طِيلة الوقت أن تقاليد ذلك المجتمع ، الذى انتقل إليه ، تسمح له بما يتجاوز ذلك بكثير ، إلّا أن تقاليد المجتمع ، الذى جاء منه ، كانت تُوقفه عند ذلك الحدّ ..

وكثيرًا ما لاح له أن (چينا) تشعر نحوه بالضَّجَر والملَل ، إلّا أنه سرْعان ما كان يُلْقِى ذلك جانبًا ، ويكتفى بالاستمتاع بصحبتها ..

وفى ذلك اليوم ، بعد شهر ونصف من وصوله إلى (دوفر) ، كان يقف معها إلى جوار تلك النافورة الجميلة ، التى تتوسَّط حديقة منزلها ، والتى صُنِعَتْ على هيئة تمثال (كيوبيد) ، عندما همس فى أذنها :

ــ (چينا) .. ما نهاية حُبّنا ؟

ابتسمت ، وهى تقول :

ــ ما للحبِّ من نهاية .

قال فى حنان :

ــ أعْنِى ما الخطوة التالية له .

أراحت رأسها على صدره ، وهى تقول :

ــ الحبُّ وحده خطوة نهائية .

قال فى حبٍّ :

ــ وماذا عن الزواج ؟

رفعت رأسها عن صدره ، وتطلّعت إليه فى حَيْرة ، وهى تقول :

ــ وما علاقة الحبِّ بالزواج ؟

هتف فى دهشة :

ــ ماذا تقولين يا (چينى) ؟

عادت تكرِّر فى إصرار :

ــ نعم .. ما علاقة الحب بالزواج ؟

كانت الدهشة المرتسمة على وجهه عارمة ، حتى أنها أضافت فى لهجة رصينة ، بدت له أشبه بلهجة والدها ، عندما ينهمك معه فى شرح عدد من مفردات وجمل الإنجليزية المعقَّدة :

ــ اسمع يا (حسن) .. الحب يختلف كثيرًا عن الزواج .. بل لقد قالوا فى أمثالنا القديمة إن الزواج هو مقبرة الحُبّ .

هتف فى استنكار :

ــ وماذا عن الشرعية ؟

أجابته بنفس اللهجة الرَّصينة :

ــ الحُبُّ فى حدّ ذاته شرعية ، بدليل نفس المثل الذى ضربته لك قديمًا ، إنك قد تحب زوجة رجل آخر ، ولكنك لا تتزوَّجها ، فى حين أنك قد تتزوَّج أخرى لا تحبها .

سألها فى حِدَّة :

ــ لماذا أتزوَّجها إذن ؟

أجابته فى هدوء :

ــ لأن مصلحتك هى أن تفعل .

حدَّق فى وجهها غير مصدِّق لما يسمعه منها ، وقال :

ــ (جينى) .. أتعْنِين أنك ترفضين الزواج منّى ؟

قالت فى هدوء :

ــ لست أرفضه .

وقبل أن تتهلَّل أساريره ، أضافت :

ــ ولست أقبله .

هتف فى دهشة واستنكار :

ــ لماذا بالله عليك ؟

ضحكت ، وهى تقول :

ــ لأننى ما زلتِ صغيرة السِّن .

سألها فى حَذَر :

ــ أيَعْنى هذا أنك لا ترفضيننى بالذات ؟

هتفت فى حماس :

ــ بالطبع .

ثم مالت نحوه ، هامسة فى دلال :

ــ والآن ، هل تصحبنى إلى (لندن) ؟

سألها فى دهشة وقلق :

ــ (لندن) ؟!.. لماذا ؟

قالت مبتسمة ابتسامتها العذبة :

ــ أريد أن أبتاع بعض الأشياء ، وأستأجر ثوب سهرة أنيقًا .

عقد حاجبيه ، وهو يقول :

ـ لماذا ؟
ضحكت ، ومالت على أُذنه ، هامسة :
ـ اليوم عيد ميلادى .. سأتم تسعة عشر عامًا .
هتف فى سعادة :
ـ يا إلهى !!.. لِمَ لَمْ تخبرينى من قبل ؟
ضحكت فى جَذَل ، وهى تقول :
ـ أردت أن أجعلها مفاجأة لك .
أمسك كفَّيها فى حنان ، وهو يقول :
ـ كل سنة وأنت طيِّبة يا (چينى) .
ضحكت فى مرح ، وهى تقول :
ـ شكرًا لك يا (حسن) .
ثم جذبته من كفِّه ، مستطردة :
ـ هيَّا .. ستصحبنى إلى (لندن) .
سألها فى تردُّد :
ـ ولكننا سنعود مبكِّرًا .. أليس كذلك ؟
أطلقت ضحكة مَرِحة ، وهى تقول :
ـ بالطبع ..
ثم مالت نحوه ، مستطردة فى خُبْث :

ـ ولكن لا يوجد درس الليلة ، فسنقيم حفل عيد ميلادى .
منحها ابتسامة عريضة ، واتجه خلفها إلى السيَّارة ..
وإلى (لندن) ..
وهناك شاركها كل مشترياتها ، فيما عدا ثوب السهرة ، الذى أصرَّت على استئجاره وحدها ، وعلى ألا تريه إيَّاه ، مما جعله يضحك ، وهو يسألها :
ـ لِمَ كل هذه السِّرِّيَّة ؟. أهو سلاح حربىّ ؟
أجابته فى دَهاء :
ـ ثوب المرأة هو دائمًا سلاح حربىّ ، تهزم به الرجل .
هزَّ رأسه نفيًا ، وقال :
ـ خطأ .. سلاح المرأة الحقيقىّ هو شخصيتها وأخلاقها .
قالت فى مكر :
ـ أتراهن ؟
قال فى جِدِّية :
ـ هذه هى الحقيقة ، فلو أن الثياب هى سلاح المرأة ، لكانت أكثر النساء ثراءً هى أرْوعهن ، وأكثرهن جمالًا .
قالت فى ثقة :
ـ أليس هذا صحيحًا ؟

هتف فى استنكار :

ــ كلَّا بالطبع .

وضعت أناملها الرقيقة على شفتيه ، وهى تقول :

ــ حسنًا .. لن نتجادل الآن .

ضحك ، وهو يقول :

ــ هذا أفضل .

ثم أمسك كفها فى حبّ ، مستطردًا :

ــ فلنؤجّل هذا لما بعد .

لم يكد يرفع عينيه إلى الأمام ، حتى وجد أمامه آخر شخص يتوقَّع رؤيته فى هذا المكان ..

(منصور) ..

(منصور علَّام) ..



٨ ــ صوت العقل ..

« دكتور (حسن) ؟!!.. » ..

هتف (علَّام) فى دهشة ، وهو يتطلَّع إلى وجه (حسن) قبل أن يستطرد مبتسمًا :

ــ يا لها من مصادفة جميلة !!

ثم انتقلت عيناه إلى وجه (چينا) ، وإلى كفَّيهما المتعانقتين فتلاشت ابتسامته ، والتقى حاجباه ، وهو يقول :

ــ عجبًا !!.. كنت أظنّك هنا لاستكمال دراستك .

ازدرد (حسن) لُعابه فى ارتباك ، وهو يقول :

ــ هذا صحيح .

ثم أشار إلى (چينا) ، مستطردًا بالإنجليزية :

ــ هذه (چينا كين) .. ابنة أستاذى فى اللغة الإنجليزية .

ابتسمت (چينا) ابتسامتها العذبة ، فى حين قال (علَّام) فى شك ، وباللغة العربية :

ــ فقط ؟

أطرق (حسن) برأسه كطفل خجول ، وهو يتمتم :

ــ وخطيئتى .

هتف (علاَّم) فى دهشة :

ــ خطيئتك ؟!

ثم عاد حاجباه يلتقيان ، وهو يقول :

ــ اسمع يا (حسن) .. إننى أعلم أن الحديث بالعربية ، فى وجود هذه الإنجليزية ، التى لا تفهمها ، يُعَدُّ مخالفًا للياقة ، ولكننى سأتحدَّث بها ؛ لأننى لا أحبها أن تعلم فحوى حديثنا .

تمتم (حسن) فى استسلام :

ــ كما تحب يا سيِّدى .

وضع (علاَّم) يده على كتفه ، وهو يقول :

ــ هل تحبّ هذه الفتاة حقًّا ، أم أنك مبهور بفتنتها ؟

ارتبك (حسن) ، وهو يقول :

ــ ماذا تقصد يا سيِّدى ؟

أجابه فى حنان :

ــ أقصد أننى أيضًا استكملت دراستى هنا ، عندما كنت مهندسًا صغيرًا ، ولقد بهرتنى فتيات (لندن) آنذاك ، وأغرتنى فتنتهن ، حتى لم أنتبه إلَّا وأنا أتزوَّج إحداهن .

هتف (حسن) :

ــ هل فعلت حقًّا ؟

أجابه (علاَّم) فى حزن :

ــ ودفعت حياتى ثمنًا لذلك .

سأله (حسن) فى دهشة :

ــ هل تشعر بالندم ؟

أجابه (علاَّم) :

ــ حتمًا يا ولدى ..

قال (حسن) منفعلًا :

ــ ولكن فتيات هنا أفضل بكثير من فتيات (مصر) .. إنهن أكثر جمالًا ، وبساطة ، و .....

قاطعه (علاَّم) فى حِدَّة :

ــ وانحلالًا .

هزَّ (حسن) رأسه نفيًا ، وهو يتنهَّد فى عمق ، قائلًا :

ــ من الظلم أن نسمى هذا انحلالًا يا سيِّدى .. إنها تقاليد المجتمع ، والتقاليد شىء نسبىّ بحت ، فالقادم من قرى الصعيد مثلًا ، سيرى أن سير الفتيات حاسرات الرأس فى (القاهرة) ، هو نوع من الانحلال ، فى حين .....

قاطعه (علاَّم) :

ـ اسمع يا ولدى .. الانحلال أمر لا يتعلّق بالعادات والتقاليد، وإلّا فما كانت هناك مقاييس فى العالم أجمع .. الأخلاق والانحلال أمور تتبع منهجًا واحدًا .. منهج الشرائع والأديان السماوية ، ولو أنك راجعت ذلك المنهج ، فى أيّة شريعة ، أيًا كانت ، لوجدت أن الفتيات هنا منحلات .

عقد (حسن) حاجبيه ، وهو يقول فى حِدّة :

ـ الانحلال موجود فى كل مكان ، حتى فى أعماق الصحراء .. الفارق هو أن يكون علنيًا ، أو سرّيًا .

قال (علّام) فى إشفاق :

ـ علانية الخطإ ليست تقنينًا له ، ولا تبجيلًا لمرتكبه يا ولدى .. إنها على العكس ، تجعل منه منهاجًا للحياة ، وهناك فارق كبير فى أن يكون الخطأ أمرًا مخجلًا لابدّ أن تستتر لفعله ، أو أن يكون منهاجًا ، يتعذّر عليك أن تمنع أبناءك من الوقوع فيه .

واغرورقت عيناه بالدموع ، وهو يقول :

ـ مثلما حدث لابنتى .

حدّق (حسن) فى وجهه ، وهو يغمغم :

ـ ابنتك ؟

أومأ الرجل برأسه فى مرارة ، وهو يقول :

ـ نعم .. ابنتى صدّقنى يا ولدى .. التقاليد الشرقية ، الكامنة فى أعماقك ، لن تتآلف أبدًا مع روح هذه المجتمعات .. إن قشورها الزائفة ستبهرك فى البداية ، إلّا أنك لن تلبث أن تكشف مساوئها ، عندما تغوص فيها .

غمغم (حسن) متوتّرًا :

ـ سيّدى .. قد يختلف الأمر معك .

تطلّع إليه (علّام) فى أسف ، وهو يقول :

ـ أنت عنيد بالفعل ، كما توقّعت .

ثم مال نحوه ، مستطردًا فى انفعال :

ـ اسمع يا (حسن) .. على أيّة حال ، حاول أن تفكّر فى كلماتى هذه ، ودعنى أكرّر لك أننى على أتم استعداد لمعاونتك ، وقتما تشاء .. ولو أنك تراجعت ، وقرّرت استكمال دراستك فى (مصر) ، فدعنى أعلم ، فأنا أبنى الآن مستشفى خاصًا هناك ، لحساب شقيقى الدكتور (فائق علّام) ، أستاذ الجراحة المعروف ، وسأضمن لك عملًا هناك ، بأجر مُجزٍ ، وبفرصة للدراسة والاستذكار .

تمتم (حسن) :

ـ سأفكّر فى الأمر يا سيّدى .

تصافحا فى حرارة ، و (علّام) يقول :

ـ اتخذ قرارك فى أسرع وقت يا ولدى .. قبل أن تفقد فرصة التراجع .

تمتم (حسن) :

ـ سأفعل .

التفت (علّام) إلى (چينا) ، التى بدت مُختنقة غاضبة ، لحديثهما بالعربية طِيلة الوقت ، وصافحها قائلا بالإنجليزية :

ـ معذرةً يا آنستى .. الحديث مع مستر (حسن) شيّق للغاية ، ولكننى سأتركه لك الآن .

وأسرع ينصرف بجسده البدين ، فالتفتت (چينا) إلى (حسن) ، تسأله فى حِدّة :

ـ لماذا لم تُقدّمه إلىّ ، كما قدّمتنى له ؟

أجابها فى شرود :

ـ إنه مجرّد صديق .

قالت فى حِدّة :

ـ ولكنك بذلك أهنتنى .

تمتم فى اقتضاب :

ـ معذرةً .. لم أقصد .

اكتفت منه بهذا القول ، وهى تقول فى ضيق :

ـ حسنًا .. هيّا .. سنعود ..

وفى هذه المرّة ، جلس هو صامتًا طِيلة الطريق ..

كان يفكّر فى كلمات (علّام) ..

وفى هذه المرّة ، كان يحارب منطقه وعقله ..

جزء كبير من عقله كان يؤمن بكل حرف نطق به الرجل ..

وجزء آخر يرفضه ..

جزء مشبّع بدماء العاطفة ..

ولم تقطع (چينا) حبل صمته أبدًا ..

وعندما وصلا إلى المنزل فى (دوفر) ، كانت استعدادات الحفل واضحة فى الحديقة ، فلقد امتدّت أوراق الزّينة عَبْرَه وازدانت الأشجار بمصابيح ملوّنة ..

وجلس (حسن) فى الحديقة شاردًا ، متسائلًا ..

هل يحب (چينا) حقًّا ؟..

أيّهما يحب ؟.. هى أم (مها) ؟..

وفى تلك اللحظة ، احتلّت (مها) وحدها عقله

طردت صورتها وجه (چينا) من خياله ، واستقرّت به

ثم ذهبت هى أيضًا ..

لبعض الوقت ، ظلّ ذهنه خاليًا من الصورتين ، وكأنما يَعجز عن اتخاذ القرار ..

ثم سمع صوت أصدقاء (چينا) ، وهم يصلون إلى الحديقة ..

وعلم أن الحفل قد بدأ ..

ومنذ اللحظة الأولى ، علم (حسن) أنه لا مكان له فى هذا الحفل ..

كان حفلًا أكثر شبابيَّة مما يتصوَّر ..

كان الشبان والفتيات يتراقصون على نغمات راقصة صاخبة ، لم تستهوِهِ يومًا ..

وانطوى هذه المرَّة وحيدًا ، فى ركن الحديقة ..

وعاد إليه ذلك الشعور القديم ..

شعور الطائر الغريب ..

وفى هذه المرَّة عاد قويًّا ، جارفًا ..

كان طائرًا غريبًا ، فى مجتمع أغرب ..

وفجأة ، توقَّفت الرَّقصات ، وصمتت الموسيقى ، وارتفعت شهقة من حُلُوق المدعوِّين ، وهم يتطلَّعون إليه ..

لا .. لم يكونوا يتطلَّعون إليه ..

بل إليها ..

إلى (چينا) ، التى ظهرت خلفه ..

وأدار عينيه إليها ، ثم شهق بدوْرِه ..

شهق فى دهشة واستنكار ..

لقد كانت ترتدى ثوبًا فاضحًا حقًّا ..

بالنسبة لعاداته وتقاليده ..

ثوبًا برَّاقًا قصيرًا ، عارِىَ الصدر والظهر ، يُظهر أكثر ممَّا يُخْفِى ..

وأحنَقَه كثيرًا أن يراها كذلك ..

أحنَقَه أن الجميع يتطلَّعون إليها فى انبهار ..

وأحنَقَه أكثر أن والديها كانا يتطلَّعان إليها فى إعجاب وسعادة ..

وسمعها تقول فى فَرَح :

ــ هل أعجبك ثوبى ؟

لم ينطق بحرف واحد ..

لم يستطع أن يفعل .

اكتفى بالتحديق فيها مذهُولًا مستنكِرًا ..

أما الآخرون ، فقد هتفوا فى آن واحد :

ــ إنه رائع .

ثم تزاحم الشُّبَّان حولها ، وكل منهم يطالبها أن تشاركه الرقصة التالية ، وهى تضحك فى مَرَح وسعادة ، قبل أن تلتفت إليه ، قائلة :

— ألن تراقصنى يا (حسن) ؟
قال فى حدّة :
— لست أجيد الرَّقص .
قالت فى بساطة :
— لا بأس .. يمكنك أن تكتفى بالمشاهدة .
اشتعلت نيران الغيظ فى أعماقه ، وهو يراها تندفع وسط مدعوّيها ، وتنهمك معهم فى رَقصاتهم الجنونية ، بثوبها البالغ القِصَر ..
وفجأة .. استعاد ذهنه ذكرى بعيدة ..
تذكّر يومًا ، كان يراقب فيه مع (مها) مباريات وُدّيَة لتنس الطاولة ، عندما نهضت (مها) ، وقالت فى حماس ، وهى تلتقط أحد مضارب اللُّعبة :
— ما رأيك لو شاركتنى فى مباراة زوْجيّة ؟
يومها أجابها فى ضيق :
— لست أجيد اللُّعبة .
قالت فى حماس :
— يمكنك أن تتعلّمها فى سهولة .
أجابها فى ضيق :

— لست أميل إلى الألعاب الرياضية .. لم أمِل إليها يومًا طِيلة عمرى .
وقفت تتطلّع إليه لحظة ، ثم عادت تجلس إلى جواره ، قائلة :
— لا بأس .
قال لحظتها :
— يمكنك أن تجدى زميلًا آخر ، و .....
قاطعته فى حسم :
— كلّا .
ثم التفتت إليه مبتسمة ، وهى تقول :
— ما دمنا لن نلعبها معًا ، فلْنكتفِ بمراقبتها معًا .
وصمتت لحظة ، ثم أردفت فى حنان :
— المهمّ أن نكون معًا .
وبلا وعى ، راح يقارن بين الموقفين ، ثم انتبه فجأة من شروده ، وتطلّع إلى الراقصين ، ولكنه لم يرَ (چينا) بينهم ، فأدار عينيه يبحث عنها ، ولكن نظراته ارتدّت إليه كالصاعقة ..
لقد كانت تقف هناك ، عند باب الحديقة ، تودّع صديقها ..
وكان هذا الصديق يودّعها بأسلوب يرفضه هو تمامًا ..
كان يقبّلها ..

* * *

٩ ــ العَوْدَة ..

انطلق مع (چينا) إلى (لندن) ، فى الصباح التالى ، لإعادة ثوب السهرة الذى استأجرته ، وظل هو صامتًا ، مَعْقُود الحاجبَيْن طِيلَة الطريق تقريبًا ، حتى قالت هى ضاحكة :

ــ ماذا أصابك ؟.. هل حلَّت أرواح تماثيل الفراعنة فى جسدك ؟

قال فى حِدَّة :

ــ لا تَسْخرى من أجدادى .

ضحكت قائلة :

ــ لا بأس .. أنت شديد العصبيَّة هذا الصباح .. إنك حتى لم تتطلَّع إلى وجهى كالمعتاد .

قال فى غضب :

ــ لأنك لا تستحقِّين ذلك .

ــ رفعت حاجبيها فى دهشة ، ثم عادت تخفضهما ، وهى تسأله :

ــ لماذا ؟.. ألم يعجبك ثوبى أمس ؟

هتف فى حَنَق :

ــ إنه ثوب فاضح .

عقدت حاجبيها ، وهى تقول :

ــ فاضح ؟!.. ما الذى تَعْنِيه بذلك ؟.. إنه ثوب سهرة فحسب .

قال فى حِدَّة :

ــ كان قصيرًا للغاية ، عارِى الصدر والظهر ، و .....

قاطعته ضاحكة :

ــ وماذا فى ذلك ؟.. ألَمْ أقُلْ لك إن الثوب هو أحد أسلحة المرأة ؟

قال ساخطًا :

ــ إننى أرفض أن تَرْتَدِى ثوبًا كهذا .

هتفت فى دهشة واستنكار :

ــ ترفض ؟!.. بأىِّ حقّ ؟

قال فى غضب :

ــ بحقِّ حبِّنا .

أجابته فى حِدَّة :

ــ الحبُّ لا يمنحك حقَّ الحَجْر على حُرِّيَّتى .

قال محاولًا هزيمتها :

— سأطلب يدك من والدك .

قالت فى حِدَّة أشدّ :

— وما شأن والدى بالأمر .. لقد طلبت يدى منّى شخصيًّا ، وقلت لك إننى لست مستعدّة للزواج الآن .. ثم إن الزواج لن يمنحك حقًّا لا يمكنك الحصول عليه الآن .

هتف مَذْهولًا :

— ماذا تقولين ؟. ما معنى الزواج إذن ؟

أجابته مُحْتَدَّة :

— أن نقيم فى منزل نملكه معًا ، وأن أرثك وترثنى ، وأن يحمل أطفالنا اسمك .

ثم مطّت شفتيها ، مستطردة فى ازدراء :

— هذا ما يقوله أبى وأمى ، أمّا أنا ، فأراه قولًا أحمق ، فيمكننا أن نقيم فى منزل يمتلك كل منّا نصفه ، وأن يُوصى كلانا بثروته للآخر ، وأن يحمل أطفالى اسمك ، دون حتى أن نتزوَّج .

هتف فى ذُهُول :

— (چينى) .. أى قَوْل هذا ؟

صاحت فى صرامة :

— الواقع .

هتف :

— إنه ليس الواقع ، بل المنهج البَرْبَرِىّ الهمجىّ ، منهج الحيوانات والحشرات .. ألا تعلمين أن الزواج هو أسمى رابطة تضم اثنين من جنسين مختلفين ؟

قالت فى حِدَّة :

— إنه أيضًا أسوأ رباط وقيد للحرّية .

هتف حائرًا :

— لا توجد حرية غير محدودة يا (چينى) .. حتى الحرّيات الشخصية حددتها الشرائع والقوانين .

قالت فى ازدراء :

— والقوانين وُضِعَتْ لنتجاوزها .

هتف :

— بل لتنظم حياتنا .. لنطيعها ونشعر بالأمان لوجودها ، وإلا انقلب الأمر إلى فوضى ، وتحوّل العالم إلى غابة .

صاحت به مُحْنَقة :

— أوليس كذلك بالفعل ؟

أجابها فى مرارة :

— ربّما .. ولكننا لو محَوْنا القوانين ، فسيصبح أسوأ .

أطلقت ضحكة ساخرة ، وهى تقول :

— هذا قول الجبناء .

هتف فى مرارة :

— بل العقلاء يا (چينى) .

صاحت به فى قسوة :

— لا تخاطبنى باسم (چينى) .

قال فى دهشة :

— بِمَ أخاطبك إذن ؟

قالت فى حِدَّة :

— باسم مس (كين) .

هتف مستنكرًا :

— (چينى) ماذا تعْنِين ؟

قالت فى غضب :

— أعْنِى أننى لم أعُدْ صديقتك .

عقد حاجبيه فى حِدَّة ، وهو يهتف :

— بهذه البساطة ؟!

قالت فى صرامة :

— هذا أفضل من تعقيدات لا مبرِّر لها .

قال فى غضب :

— أيّة تعقيدات ؟.. لقد ودَّعك الجميع أمس بالقُبلات ، شبَّانًا وشابات .

قالت فى حزم :

— وماذا فى ذلك ؟.. إنهم أصدقائى .. أيبدو لك هذا أيضًا فاضحًا ؟

صاح فى حَنَق :

— بالطبع .. كيف تسمحين لشاب غريب بتقبيلك ؟

قالت فى حِدَّة :

— ليس غريبًا .. قلت لك إنه صديقى ، ثم إننى لست أسمح لك بمناقشة مثل هذا الأمر .

قال صائحًا :

— حسنًا .. لن أفعل .

لاذ بالصمت فى حَنَق ، واحتقن وجهه غضبًا ، وأخذت هى تقود السيَّارة فى عصبيَّة ، حتى بلغا ذلك المتجر فى (لندن) ، حيث استأجرت ثوب السهرة ، فقالت فى حِدَّة :

— سأقضى بعض الوقت فى الداخل .. يمكنك أن تجوَّل ، أو تشترى شيئًا ..

تمتم محنقًا :

— ليس معى سوى جنيه .

قالت في صرامة :

ـ انتظر هنا إذن .

ثم اتجهت إلى المتجر فى خطوات صارمة، واختفت داخله ..

وجلس هو يغلى غضبًا ..

كان موقفها يُخنِقه فى شِدَّة ..

لم يدرِ كيف جرؤت على تبرير مواقفها هكذا !!..

أم أنها من مجتمع آخر حقًّا ؟!..

مجتمع لَمْ ولَنْ يألفه ..

مجتمع صار فيه طائرًا أكثر غربة عن ذى قبل ..

وفجأة .. شعر أن مقعد السيَّارة يكبّله ..

يحرقه ..

وغادرها فى عصبيَّة شديدة ..

فجأة ، لم يَعُد يحتمل البقاء داخلها ..

فجأة ، كَرِهَ كل ما ينتمى إليها ..

وعَبَرَ الشارع فى خطوات واسعة سريعة ، وانتقل إلى الجانب الآخر ، وكأنه يفرّ من كل ما يذكّره بـ(چينا) ..

واستدار يتطلّع إلى السيَّارة من بعيد ..

ورأى (چينا) تغادر المتجر ، وتتجه إلى السيَّارة فى حِدَّة، ثم تنحنى لتتطلّع داخلها ، ويحتقن وجهها غضبًا ..

لم يدرِ لِمَ ظلَّ صامتًا ، وهو يتطلّع إليها ؟..

ربَّما أراد أن يراها فى لحظة غضب ..

ربَّما أراد أن يختبر عواطفها نحوه ..

أراد أن يراها قلقة بشأنه ..

باحثة عنه ..

كان يتمنَّى لو أنها أقدمت على خطوة واحدة ، تؤكّد له أنها ما زالت تريدُه ..

ولكن (چينا) صدمته ..

لقد تلفَّتت حولها فى حَنَق ، ثم قفزت داخل السيَّارة ، وأدارت محرِّكها فى عصبيَّة ..

وهنا فقط انتبه ..

انتبه إلى أنه لا يستطيع العَوْدة دونها ..

وهنا فقط هتف :

ـ (چينا) .. انتظرى .

ولكنها انطلقت بالسيَّارة ..

انطلقت دون أن تنتظره ..

وبلا وعْيٍ ، وجد نفسه يَعْدُو خلف السيَّارة ، وهو يصرُخ :

ـ انتظرى يا (چينا) .. أرجوك .

كان واثقًا من أنها تراه ..
كان يرى عينيها تتطلّعان إليه ، فى مرآة السيّارة ..
ولكنها لم تتوقّف ..
واصلت سَيْرَها فى بطء نسبىّ ، وكأنها تتعمّد إذلاله ، وتتعمّد رؤيته يَعْدُو خلفها ..
وأخيرًا عجز عن اللّحاق بها ، وتوقّف يلهث فى شِدّة ..
كيف فعل هذا ؟..
كيف سمح لنفسه بأن يَعْدُوَ خلفها ، ويتوسّلَ لها على هذا النحو ؟!..
يا لَلْعار !!..
كيف نسى أن هذه هى (چينا) ؟!..
كيف نسى ما أخبرته عنها أُمّها ؟..
هكذا (چينا) دائمًا .. تلفظ من يَعْدُو خلفها ..
هكذا هى ، كبنات جنسها ووطنها ..
مراوغة ، أنانية ، متكبِّرة ..
ما كان ينبغى أن يَعْدُوَ خلفها أبدًا ..
كان عليه أن يتجاهلها وينتظر ..
كانت ستعود إليه حتمًا ..
تمامًا مثلما فعلت من قبل ..

ولكنه عَدَا خلفها ..
ولفظته ..
يا إلٰهى !!.. إنه الآن وحده ..
وحيدًا فى موطن غريب ..
لم يشعر فى حياته كلها بالغربة ؛ مثلما شعر فى تلك اللحظة ..
لقد كان وحيدًا ، لا يمتلك سوى جنيه أسترلينى واحد ..
حتى العملة التى يملكها غريبة ..
كان وحده ، بلا صديق ..
بلا رفيق ..
كم يشعر بغربة خانقة ، تعتصر عنقه ..
كم يشعر بها تجثم على أنفاسه ..
لم يعُد يلهث من التعب وحده ..
كان يلهث من القهر أيضًا ..
وفى تلك اللحظة بالذات ، التهب فى أعماقه شوقه إلى موطنه ..
إلى أُمّه وأبيه ..
إلى شقيقيه (أحمد) و (وهبى) ..
إلى (حنان) ..

كم يشتعل الشوق فى أعماقه نحو (مها) ..

يا إلهى !!..

لقد نسيتهم جميعًا ..

لقد خدعهُ بريق الغُرْبة ، وانتزعه من طهارتهم ..

خدعهُ ليلقى به وحيدًا غريبًا ..

إنه لا يملك حتى ما يكفى لشراء تذكرة قطار ، يعود بها إلى (دوفر) ..

ولا إلى وطنه ..

لا يملك سوى جواز سفره ، الذى لا يفارقه أبدًا ..

ومدَّ يده إلى جيب سترته ، يخرج جواز سفره ..

وسقطت من جواز السفر بطاقة ..

وانحنى (حسن) يلتقطها ..

وتفجَّر الأمل فى قلبه وأعماقه ..

إنها بطاقة (منصور علَّام) ..

ذلك المصرىّ ، ذُو القلب الطيِّب الحنُون ..

كيف لم ينتبه إلى ذلك الفارق الرهيب ، بين مواطنيه ، ومواطن الغُرْبة ؟..

كيف غابت عنه الشهامة العربية الأصيلة ؟..

نعم ..

كل شىء فى (مصر) بدا له الآن رائعًا ..

كل شىء ..

لقد وجد طريقه ..

سيذهب إلى عنوان (منصور علَّام) ، المدوَّن فى بطاقته ..

سيذهب إليه ، ولو كان فى آخر (لندن) ، ولو سار إليه على قدميه ..

وسيجد له الرجل وسيلة العودة ، وتلك الوظيفة فى مستشفى شقيقه الخاصّ ..

سيمنحه الأمل فى موطنه ..

قرأ العنوان فى إمعان ، واستعدَّ للسير إليه ..

وفجأة توقَّف ..

لقد اتخذ قرارًا ، سينفق فيه آخر جنيه أسترلينى فى جيبه ..

وفى حزم ، اتجه نحو هاتف دولىّ ، وأمسك الجنيه فى اهتمام ، ثم اتجه به إلى كشك صغير ، وأبدله بعملات معدنية ..

كان يبتغى الاتصال بـ (مصر) ..

وكان يعلم أن المبلغ الذى يملكه ، لن يتيح له سوى نصف الدقيقة فحسب ..

وغامر بكل ما يملك ، مقابل نصف الدقيقة هذه ..

وضع كل المبلغ فى آلة الهاتف ، وطلب الرقم ..
ومضت لحظات ، ثم سمع صوتها ..
صوت (مها) ..
ومن العجيب أنه لم يستغل نصف الدقيقة كله ..
لقد قال لـ (مها) عبارة واحدة ، أنهى بعدها الاتصال :
ـ سأعود كما كنت .
وعاد ..
عاد إليها ..

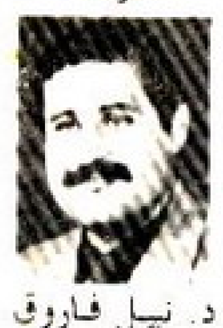
★ ★ ★

[تمت بحمد الله]

زهور

سلسلة رومانسية رفيعة المستوى

المؤلف

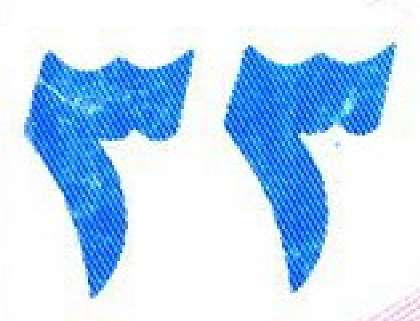


د. نبيل فاروق

السلسلة الوحيدة التى لا يجد الأب أو الأم حرجا من وجودها بالمنزل

طائر غريب

عاش (حسن) عمره كله طائرًا غريبًا حتى بعد أن التقى بـ (مها) .. ثم سافر ليستكمل دراسته فى (لندن) ، وهناك ذاب فى جمال (جينا) ، الإنجليزية الحسناء .. ولكن .. هل انتهت بذلك غربته ، أم أنه سيبقى دومًا كما كان .. (طائرًا غريبًا) ؟



ص

الثمن فى مصر

وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم